عمرو العادلي
السيدة الزجاجية
دار الشروق
فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

السيدة الزجاجية

عمرو العادلي

عن الرواية..

تتبع عمرو العادلي رحلة «ثومة» التي لم تفق بعدُ من آلام الولادة لتجد المولود طفلًا برأس كبير.
بأسلوب مُتدفق، يأخذنا المؤلف إلى عدة عوالم متباينة؛ عالم السيرك بما فيه من سِحر، عالم الصيد بما فيه من صراع، عالم الزراعة بما فيه من أمل، وعالم المصانع حيث لا مكان لضعيف أو مُتكاسل.
يروى لنا المؤلف رحلة مشوار البطلة، مازجًا بين عالم غريب وبين واقع تلمسه من حولك أينما نظرت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداءٌ..

إلى

أم كلثـوم العـزب سعيد

رغم طول الغياب، ما زال

الغصن الذي طِرتِ منه يرتجف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«ما الحياة إلا ظل يمشي، ممثل مسكين يتبختر ويستشيط ساعته على المسرح، ثم لا يسمعه أحد»

شكسبير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١

حتى منتصف صيف العام ١٩٧٧ عاشتْ بالقرب من هنا امرأة ذَكَرتْها السِّيَر فيما بعد، كانت تمرّ بجيرانها وهي تحمل ابنها ذا الملامح الغريبة فوق صدرها، أو تَدفعه نائمًا في عربته الحديدية ذات العجلة الواحدة أمام الجميع، ومثلما ظهرتْ فجأة اختفت، لكن لتحري الدقة أكثر عن سيرتها، يجب أن نعود عشر سنوات إلى الوراء، وتحديدًا في أحد مساءات إبريل من سنة ١٩٦٧، عندما وقف رجل مجهول فوق سلم خشبي ومد يده ليطفئ جميع الكلوبات، فسأله مساعده الذي يسند له السلم بالأسفل:

«لماذا علقناها المغرب ما دمنا سنخلعها قبل العشاء؟».

رد عليه الرجل وشمعة الكلوب الأخير تُضيء وجهه:

«يبدو أن المولود نزل ميتًا، فقد اضطروا للاستعانة بأم أيوب بعد فشل امرأتين قبلها، لكن يُفضَّل أن تطبق فكيك لنحفظ كرامتنا».

دفنوا خَلَاص المولود في ركن مظلم، وانطفأ البيت الذي كان متوهجًا بالأنوار بعد اختفاء الرجلين بالخطاطيف والكلوبات، فعندما رأى الأب ابنه مولودًا برأس أكبر من الحجم الطبيعي وجسد أصغر من الكف، خرج دافعًا أمامه القابلة، كادت المرأة المسنة أن تقع لولا تمسكها بعمود السرير الحديدي، بسبب اندفاع إبراهيم أغلق الباب على جزء من عباءته، لم ينتبه لزوجته وهي تنادي عليه بصوتها المشروخ:

«إبراهيم، إبراهيم».

همستْ لها القابلة العجوز وهي ترتعش وتخفي رعبًا خلف ملامحها:

«يحصل كثيرًا يا ثومة، والأيام تعدل كل شيء».

لم ترد الأم الصغيرة، كان جسدها لا يزال دافئًا، ودمها لم يجف بين ساقيها بعد، دارت الدنيا بها وهي تتأمل قطعة اللحم الحمراء التي غادرت بطنها منذ دقائق، طفل برأس كبير وملامح كاملة، لكن جسده هامد وأصغر كثيرًا من حجم رأسه.

رسم العرق حدودًا غامقة لرأس ثومة فوق المخدة، عندما غابت عن الوجوه والأضواء حملت القابلة لفة المولود وخرجت بها، كل ما يشغلها أن تتعاطى أجرها كاملًا، وفوقه الحلاوة، فحالة الولادة العسيرة كلفتها نصف نهار من الترقب والإرهاق، كلما مدت يدها لشخصٍ بالطفل لوى وجهه وتمتم بكلمات غير واضحة، استطاعت المرأة العجوز بالكاد سماع جملة مفيدة من جد المولود:

«طبعًا أنتِ تعرفين أكثر من غيرك يا أم أيوب، فلا يمكن أن يكون هذا المخلوق من نسلنا».

مرت القابلة بالمهد على الحضور ربما يستوقفها أحد، كان الجميع يشهقون ولا ينطقون، أسندت قطعة اللحم الساكنة فوق صوان شمعدان أحضروه مخصوصًا للسهر والاحتفال، أشعلت فتيل خمس شمعات، شالت الشمعدان الذي يحمل الطفل ومشت بخطى بطيئة، مرت أمام الحضور وهي تتوسل إليهم بقبول أمر الله:

«أنتم تعرفونني جيدًا، ومؤكد أن منكم رجالًا يقفون أمامي الآن، أنا التي أخرجتهم من ظلمات الأرحام إلى نور الدنيا، وأود أن أقول لكم شيئًا يا أبنائي، هناك حياتان يعيشهما الإنسان، واحدة بالداخل وأخرى بالخارج، والعيوب التي تتشكل في الأرحام تعالجها الشمس ويداويها الهواء بين الأهل والخلان، صدقوني، هي مسألة وقت فقط».

أخذتْ تحدثهم عن معجزات ما بعد الولادة، جبين عريض أو أنف معوج، ذقن بارز أو شفة أرنبية، ربنا كبير، كررتها كثيرًا ثم توجهتْ مباشرة إلى الجد، كبير العائلة، رفعتْ عن وجه المولود طرف شال أبيض وقالت:

«لا تنظر إلى جسده الصغير، فوجهه فلقة قمر».

ابتعد الجد عنها خطوة.

«لا أعرف لماذا أضأتِ خمس شمعات، على ماذا سيُحسد إن شاء الله؟».

أخذ يبحث عن شيء في عبه.

«نحن نقدر تعبك، اتركي ما جلبته يداكِ، لملمي أغراضكِ وعودي إلى سردابك، نحن لا نريد وعظًا، وإنما نريد حيلة».

أخرج لفة نقود ودسها في يدها دون أن يعدَّها، تظاهرت القابلة العجوز بمحاولة تقبيل اليد المانحة، فتبددت القبلة في الهواء، قبضت على النقود التي بدت أكثر من حقها وانصرفتْ، بعد قليل ارتدَتْ أم أيوب الملابس التي جاءت بها، وضعت فوق رأسها شالًا أسود ينتهي طرفه في فمها، حملت أغراضها القليلة في بقجة فوق رأسها واختفت.

تناول أبو إبراهيم اللفة من صوان الشمعدان ومشى بها قاصدًا غرفة ثومة، كشف طرف الغطاء الأبيض المُطرَّز وسرق نظرة سريعة، ثم تلفَّت حوله يتابع: هل لاحظ أحد تلك المحاولة الخاطفة أم لا؟ فتح باب الغرفة وانحنى أمام العتبة، وضع المهد على الأرض كأنه يلقي بنفاية في حفرة.

تركت ثومة سريرها رغم وهن الولادة، اعتدلت في جلستها لترى شيئًا آخر غير سقف غرفتها، طلعتْ فوق كرسي ووقفت خلف نافذة تطل على الشارع، راقبتْ مدخل البيت المقابل، كانت الاستعدادات تجري للاحتفال بشم النسيم، العيال يلعبون بالبيض والنساء يتكحلن، والفتيات اليافعات يتأهبن لرص الفطير في سلال السعف، والبنات الصغيرات يصنعن من عيدان الملانة أساور وخلاخيل.

«خلقه الله هكذا، ولا يمكن أن أضيف إليه شيئًا آخر يا لوزة».

قالت ثومة للمرأة الوحيدة التي تشاركها الغرفة ثم ملَّستْ على بشرة وليدها، كانت نعومتها أشبه بمخمل، حملت اللفة عن الأرض ووضعتها بجوارها فوق السرير الحديدي، شردتْ وتحجّرتْ عينها.

لم تكن ثومة أبدًا بهذا الضَّعف عندما رأت إبراهيم لأول مرة منذ ثلاث سنوات، لمَّا كانت ترتحل مع عائلتها في دورة لا تنتهي، مثل دوران الأرض حول الشمس، يمرون على بلاد الله دون تمييز، كل بضعة أيام يحطون رحالهم في قرية أو كفر، يقدمون فقراتهم المتنوعة عن السِّحر، ويعرضون الطرائف الفكاهية مع بعض المقتطفات الغنائية المرتجلة، فرقتهم الموسيقية لا تزيد على ضارب طبل ونافخ مزمار، تُقدم العائلة الجوالة فقراتها في سيرك متنقل، قاعدته مسرح خشبي مُقام فوق سقالة، ورأسه خيمة مشدودة من قماش وأحبال.

كان رب الأسرة يسحب معه عائلته الصغيرة أينما ذهب، ثومة في السابعة عشرة، وأختاها التوأم في السادسة عشرة، أغلب الفقرات التي يؤلفها الأب ترتبط بابنتيه التوأم، يقدمهما على أنهما بنت واحدة، ليلفت أنظار زبائنه ويستحوذ على تركيزهم، تغني إحداهما ثم تخرج الأخرى من بين الجمهور بملابس أختها، فيصفق الفلاحون الذين يبحثون عن ساعة حظ بعد طول شقائهم في الغيطان، ويرمون في طاقية الأب بالمزيد من القروش والشلنات.

أما ثومة، فطالما ضربها زوج أمها لأنها لا تملك أي موهبة، رغم أنه سماها أم كلثوم لتطرب السامعين وتجلب له المزيد من الفلوس، فهي لا تجيد الرقص بالعصا مثل مُهجة، ولا تعرف لعب الورق وتفريغ جيوب الأعيان مثل نفيسة، حتى ترتيب فقرات السِّحر تتكفل بها الأختان، أصر زوج أمها على أن تضرب معهم طلقة في حرب أكل العيش، فأبقاها خلف الخيمة المنصوبة وبدأ يفكر، كيف يمكنها أن تشارك في مساعدتهم، أعطاها قبعات تملؤها بالريش، وبيض بلاستيك تثقبه وتُعبئه بالبوتاس ليطير، وبعض قراطيس مزودة بسدادة، لا

تسمح بنزول الماء من أبوازها إلا بعد أن يصفق الجمهور، فتمتلئ الخيمة بزوبعة من الصفير وشهقات التعجُّب.

عندما ترددت ثومة في قبول ذلك العمل قال لها زوج أمها:

«أنتِ الوحيدة التي خُلقتِ في الدنيا بلا فائدة».

ثم أضاف:

«سيموت من لا يريده أحد».

تفكر كثيرًا قبل أن تنطق أمامه بأي كلمة، فحتى بلوغها الخامسة عشرة، كان يأمر أختيها برفع فستانها وشد سروالها ليضربها على مؤخرتها العارية برجل كرسي خيزران، فيفوق شعورها بالخوف إحساسها بالوجع.

في تلك الليلة، تأكدت ثومة أن ما يفعله زوج أمها له أسباب أخرى غير عدم مساعدتها لأختيها، وتحديدًا يوم أن هربت منه نهارًا كاملًا وذهبت لتبحث عن أبيها الذي لا تعرفه، فلا معلومات لديها أكثر من أن اسمه العزب سعيد، ويعيش في البلد البعيد، دلّها أولاد الحلال على القرية التي يُحتمل أن يكون مُقيمًا بها، قضت ساعات وساعات تسأل البائعات في الأسواق، وتتلصص على اسمه لدى الغنَّامين وتجار الأعلاف، لم يدلها سوى شيخ مُسن أغلق الزمن عينيه ورسم على وجهه خريطة، أشار بطول ذراعه إلى بيت كبير في آخر القرية، عندما وصلت إليه منعها رجلان يحرسان البوابة، ولما هدها التعب وقعت أمام أقدامهما وهي غارقة في الوسخ والعرق.

لم تميز ثومة ما حدث لها بعد ذلك، خلط خيالها الحلم بالواقع، فكل ما تذكرته أن رجلًا مُسنًّا مهيب الملامح اقترب منها وهو يدق عصاه أمامها بشكل منتظم، قرَّب فمه منها وقال:

«أنتِ البنت التي غادرتْ مع أمها إذن، لقد جئتِ في موعدكِ بالضبط».

أسندها الرجلان وأدخلاها غرفة يرقد فيها رجل مريض شاحب الملامح، فعاود الشيخ المُسن حديثه إليها:

«هذا هو العزب أبوكِ، لكِ نصيب تشوفيه».

لم تصدق ثومة أن هذا الرجل الذي لا وزن له ولا صوت هو أبوها، لم تر منه إلا وجهًا ابيضَّ من الوهن، محفور فيه كرتان زجاجيتان صغيرتان، لا ينبع منهما أي بريق، كان مريضًا لدرجة أن الذباب يئز حوله في سلام، يشير بذراع كأنها كيس جلد محشو بالعظام، حينما اقتربتْ ثومة منه ودَّ أن يتحدث إليها، لكنها عندما أنصتت سحب شهيقًا طويلًا ولم يخرج من زوره أي صوت، كان يشم فيها شيئًا من رائحة أمها، دس في يدها ورقة وسمعته بالكاد:

«هذا عنوان عمك معوض، دكتور كبير ويسكن في المعادي، إن احتجتِ شيئًا فلا تترددي في طلبه منه».

مدة طويلة وذراعه معلقة بالورقة، عندما أخذتها ثومة منه ابتسم وسألها:

«ماذا سموكِ يا حبيبتي؟».

قالت:

«أم كلثوم».

فتوسل إليها الرجل المريض بلسان جاف خالٍ من الرمق:

«حقك عليَّ يا ثومة، حقك عليَّ».

رددها كثيرًا، فقالت:

«عماذا تتكلم؟».

تحجرت عين أبيها، أصابته رجفة متقطعة وقال:

«عن أي شيء، عن كل شيء».

عندما همَّ بتقبيل يدها انفلتت منه، كان مجرد رفع رأسه أمرًا مُجهدًا، فطارت القبلة الضعيفة في الهواء.

اقتربتْ من ثومة امرأة عفية يبدو أن لها سطوة ما على جميع الرجال، زغرتْ للمريض النائم فتقلصتْ ملامحه وتوقف عن محاولات مد يده، خطت باتجاه ثومة ودارت حولها مرتين.

«لن أسمح يا نور عيني لأحد بأن يأخذ مليمًا من نصيب أولادي».

شهق الرجل المريض وغاب عن الوعي، فأخرجها الحارسان من الغرفة وأغلقا الباب.

بالخارج، اقتربت المرأة العفية من ثومة، هجمتْ عليها بيدها الكبيرة، انضغط إبهامها وسبابتها لا يفصل بينهما إلا أذن الفتاة المرتجفة.

«لو عتَّبْتي هذا المكان مرة أخرى فسأعلقك فوق عمود النور هذا حتى تجفِّي وتتعفني».

ثم أشارت بيدها الأخرى إلى صَارٍ طويلٍ يحمل فانوسًا أمام البيت الكبير، بالكاد أفلتت ثومة أذنها من اليد، تسحَّبتْ كالمنومة، لا تملك شجاعة النظر إلى الخلف.

غادرتْ قرية أبيها وهي شاردة، يومض ضوء الشمس أمامها على شكل أقواس تتحرك في الهواء، والأرض تنسحب من تحت قدميها ببطء. رجعت تبحث عن الخيمة وهي متعبة وجائعة، في رأسها تدور أسئلة بلا عدد، وفي يدها ورقة مبتلة بالعرق.

لو فات اليوم السابع فستأخذ البغال الخيمة إلى قرية أخرى، وتتوه صاحبتنا في الدنيا الكبيرة، لكنها لم تتأخر عن موعدها، وصلتْ عند غروب اليوم السابع، فأفراد عائلتها الصغيرة لا يزالون يخلعون الأوتاد ويطوون الخيام.

كانت هذه هي المرة الأولى التي رُفع فيها فستانها، فتورمت إليتاها من الضرب برجل الكرسي الخيزران.

بعد كل علقة لا يمل زوج أمها من التحذيرات والنصائح.

«الحروب في كل مكان، والعالم يأكل بعضه بعضًا، لقد اخترت لكِ ولأختيكِ الجانب السهل من الحياة، مسرح مُضاء بالكلوبات وزبائن يفرغون ما في جيوبهم أمامنا وهم يضحكون، الحياة لها جوانب أخرى مظلمة لا يتحملها بشر، صدقيني، أنتِ جادة أكثر من اللازم، وذلك يُعد خطرًا في مثل هذه الأيام، اسمعيني جيدًا يا ثومة، أنا لا أعزلكِ في الخيمة عن جمال العالم، بل عن شروره».

لم تجرؤ على الرد، سكوتها دائمًا بالنسبة له يعني الرضا، فكان يستغل صمتها بإلقاء المزيد من الكلام.

«لماذا لا تريدين مساعدة أختيك، هه؟ هما لا تفعلان أي أخطاء، فقط تضحكان في وجوه الزبائن، ابتسمي للناس ولو لمستكِ يد أحدهم فسوف أقطعها».

لا تقتنع بكلامه، فهي ترى بعينيها أيادي المساطيل تسند على أكتاف أختيها وتتحسس أفخاذهما، ورغم ذلك لا يكلف خاطره ويفتح فمه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢

شبَّتْ صاحبتُنا بلا أُم تقريبًا، فآخر عهد لها بأمها كان أثناء تعلمها المشي، عندما أحضرت لها طوق كاوتشوك تالف من الكارو، اخترعت له وظيفة جديدة بعد أن مزقته الأحوال وطعنته المسامير من كل جوانبه، كانت توقف طفلتها في وسط الدائرة، تُحرك يديها فتزحف بالطوق، خطوة بخطوة، حتى تعلمت الوقوف دون مساعدة، تسند ثومة يديها مجتمعتين فوقه، فينزلق ويدفعها للأمام، وذات صباح انتظرت أن ترفع اليدان الكبيرتان الطوق كما اعتادت، لكنها لم تر إلا أربعة أطواق يدورون بسرعة تحت سطح خشبي يجره ثلاثة بغال، وهي تجلس بين أغراض كثيرة ملونة، تمر أمامها الدنيا ببطء عندما تخترق العربة الحقول، كلما أمعنت النظر في شيء انسحب سريعًا إلى الخلف، وتبدلت صورته بصور أخرى لا تتوقف عن التدفق.

لم تعد تسأل أحدًا عن أمها، فكلما جاءت سيرتها قالوا إنها فوق عند ربنا، لكن زوج أمها كان يأخذها معه في الأعياد ويقول لها:

«أمك هنا، تحت».

ثم يشير إلى حفرة مغلقة ببلاطة أسمنت بيضاوية.

وقعتْ ثومة في حيرة دائمة بين فوق وتحت، سرعان ما بدأت تشعر أنها تسير في حلم طويل يتحرك بها أثناء نومها، حلم يجره ثلاثة بغال.

في كل مرة تتورم مؤخرتها كانت تشعر بالإهانة، بعد أن أصبح بإمكانها الجلوس على إليتيها بشكل طبيعي وافقتْ على الاختباء خلف الخيام، بشرط ألا تشارك أختيها في تقديم العروض، كانت فقط تُحضر مستلزمات الفقرات، ملابس ملونة وألعاب نارية وكهارب تشتعل بمكنة الجاز، قَنعتْ بمكانها في الظِّل، تطهو لأفراد الفرقة وجبات الطعام، تتجول معهم أينما ذهبوا، وتحط رحالها خلف كل خيمة أينما حلوا.

حطوا أغراضهم ذات ارتحال إلى قرية صغيرة اسمها «ميت سالمة» في يومهم الأول سمعوا من الأعيان أنها من بين القرى التي رفضت دفع ضريبة «حق الطريق» أيام الحملة الفرنسية، والتي فرضها نابليون وحدد قيمتها بـ ١٠٣ ريالات، لا تهمنا هذه المعلومة في شيء لأنها لا تهم صاحبتنا في شيء، فقد كانت تلك القرية هي التي رأت ثومة فيها إبراهيم للمرة الأولى، اقتحم خيمتهم مع بعض رفاقه وهو يرتدي عباءة جوخ فاخرة، ومثل كل الشباب، كانوا يريدون التسكع والنوم مع امرأة كما اعتادوا بعد مواسم جمع المحاصيل، في تلك الليلة لم يُعجب إبراهيم بأي بنت في الخيمة، فكلهن ملونات مثل عرائس المولد، تفوح منهن روائح المساحيق الفاقعة والسبرتو

وماء الورد، ترك أصدقاءه وأشعل سيجارة مبرومًا فيها فتلة حشيشة، لف حول الخيمة وهو يصفر ويبحث عن حجر يُكمل فوقه تدخين سيجارته، فسمع طقطقة خشب، عندما التفت خلفه كانت ثومة تجلس فوق كرسي مخلخل لتُكمل ما طلبه منها زوج أمها، أظهرتها الإضاءة الضعيفة كشبح مرسوم فوق الأرض بلا أبعاد، دهس إبراهيم عقب السيجارة بحذائه فغاص في الطين، اقترب منها خطوة وسألها:

«هل تتبعين هذه الخيمة يا شاطرة؟».

لم ترد، نقعتْ قرطاسًا في الماء ثم نفخت فيه، فأصدر نفيرًا مكتومًا، ألقت بالبوق الصغير فاستقر بجوار قدمه، عندما أعاد عليها السؤال كذبتْ ثومة وقالت:

«لا، أنا لا أتبع هذه الخيمة».

أشعل سيجارة أخرى وابتعد عنها قليلًا، تناولتْ بوقها مرة أخرى ونفخت فيه فأصدر صوتًا مضحكًا، عندما التفت إليها قالت:

«هل كنت تحدث طفلة؟ تقول لي يا شاطرة، أنا في السابعة عشرة ولي اسم».

عاد إليها يتأملها كأنه لم يكن يراها.

«وما هو؟».

ارتبكت وهي تفرغ أكياس البوتاس وقالت:

«ثومة».

لم تتذكر ما قالته له بعد ذلك، لكنهما تبادلا الحديث حتى انتهت الفقرات، اكتشفت رغبه طاغية في الكلام معه، وهو أيضًا نسي أصحابه داخل الخيمة، بل نسي أن يربط بغلته.

كان يومهم الثاني في الارتحال إلى تلك القرية، ولا يزال أمامهم خمسة أيام حتى تتحرك البغال بالكارو إلى قرية أخرى، باتت ثومة ليلتها وهي تشعر برجفة خفيفة، وقلبها يصدر صوتًا كتنقيط الماء في إناء معدني.

في اليوم التالي كانت تقف خلف الخيمة تمارس مهامها كما تعلَّمتْ، فعاد إبراهيم وحاول إغراءها بكل الطرق الممكنة، وضع أمامها محفظته العامرة بجميع أنواع الأوراق المالية، بدءًا من الشلن البرتقالي والرُّبع الأخضر، وحتى الورقة فئة عشرة جنيهات المرسوم عليها رأس فرعون، لم تلتفت ثومة لكل

هذه المحاولات، فهي ترى النقود مجرد أوراق، لا أكثر ولا أقل، وتتعجب من زوج أمها الذي يفني عمره بإخلاص للحصول على أكبر كمية منها.

فشلت كل محاولات إبراهيم في استمالتها، لم يُكمل في تلك الليلة مشاهدة العروض، انصرف وترك أصحابه يرقصون على أنغام المزمار فوق صهوات الخيول، غير أنه عاد مرة أخرى في نهاية السهرة، تسلل من بين الأوتاد التي تشد الخيمة بالحبال، كانت ثومة تجلس وحدها فوق كرسيها المتخلخل وسط أكوام من الأغراض المُعدَّة للفقرات، تحشو القش في قبعة سيخرج منها أرنب، وتُفرغ محتويات القراطيس التي سيعلقها زوج أمها فوق بطنه، فالفقرة القادمة سيسيل فيها الماء من البزابيز الملصوقة أسفل كرشه، سيقفز من كمه أرنب وتنط من عبّه حمامة.

لم يشعر إبراهيم بالوقت، كل ما كان يريده هو أن يجلس مع ثومة أطول فترة ممكنة، فحركتها البطيئة ولفتاتها الصارمة تزيد من أنوثتها دون أن تدري، ونظرة عينها الساكنة تنمّ عن تصالح غريب مع الصمت والظلام، قدَّر بأن عمرها لا يزيد بأي حال على خمسة عشر عامًا.

عندما سكنت حركتها استدرجها مرة أخرى بأوراق نقدية أكبر، أخرج واحدة وعرضها أمام عينيها:

«هل تعرفين هذه؟».

تأملتها ثومة لبرهة وقالت:

«فلوس».

فقال إبراهيم:

«هذه مائة جنيه، خمس ورقات منها تشتري فدانًا».

كان زوج أمها قد انتهى من عرض فقرته ولف خلف الخيمة ليجهز ملابس الفقرة التالية، عندما لمحهما لم يلفت نظره سوى الورقة التي يمسك بها الزبون صاحب العباءة الجوخ، اقترب منهما بهدوء، مد يده في خفة لص والتقطها من بين إصبعيه.

«مائة جنيه! يا دين النبي».

بدا صوته أجوف كأنه يصدر من كهف.

أعادت ثومة الورقة النقدية بجوار المحفظة العامرة مرة أخرى ووقفت تنتظر، لم يكن إبراهيم يملك رد فعل أنسب من لملمة أغراضه وترك المكان.

سحبها زوج أمها بهدوء إلى طريق الخيمة وقال:

«مائة جنيه يا ثومة، أختاكِ تكسبان الجنيه بخلع الضرس، أما أنتِ، عيني يا عيني، تسحرين لواحد من الأعيان فيطب مثل الرطل».

لم ترد، كأنها لا تسمع كلماته، ظلت ساهمة تنظر إلى السماء ونجومها التي تراقبها من بعيد كالعيون، شعرت برأس زوج أمها من الخلف ساندًا فوق كتفها، تأمل معها الأفق الذي تنظر إليه، فأصبحت ثومة كمخلوق واحد برأسين.

«سيعود بنقود أكثر، أليس كذلك يا نور عيني؟».

سحبت كتفها من تحت ذقنه.

«لا. سيذهب بغير رجعة».

كان وجهه ملطخًا بالأصباغ، يرتدي ملابس ملونة فضفاضة، أخذ يقفز في الظلام وهو يُنطِّط كريات صغيرة في راحتيه، كأنه يقدم فقرة مبتكرة بلا جمهور.

«ماذا تقولين يا مجنونة. وهل يرفض عاقل مائة جنيه في مثل هذا الزمن الأغبر؟ على الأقل اضحكي في وجهه حتى يحمينا من أوباش قريته، فهو يعرفهم ونحن لا نعرف شيئًا، ولا يزال أمامنا هُنا شُغل أربعة أيام...».

ابتعدت ثومة عنه حتى خفت صوته، تركت قدمها تقودها بعيدًا عن الخيمة، جلست فوق أطلال ساقية مهجورة، كانت تنصت لصوتها الداخلي وتقطع عشبة في يدها، فسمعت من خلفها حفيفًا واقتربتْ رائحة عطر فواح هُيئ لها أنها شمته من قبل، فالتفتت ببطء.

«أنتَ مرة أخرى، اسمع، أنا لا أنتمي لعالم تقديم الفقرات وتسلية الزبائن، هل تفهم؟ كل ذنبي أنني خُلقت لعائلة يرى كبيرها في المال كل الفضائل، وربما تكمن مشكلتك أنت أيضًا في محفظتك».

اقترب منها إبراهيم وهمس:

«أنا لست من الأعيان كما تتخيلين، فهذه عباءة أبي، أنا مجرد تاجر صغير أشتري القطن من المزارعين وأبيعه للمنجدين في البنادر، حتى المائة جنيه التي كانت في يدي، بَطلَ استخدامها منذ أيام الملك، نحن نلعب بها فقط، لا أكثر ولا أقل».

أخرج من محفظته مئات الجنيهات ومزقها أمامها، فتابعتْ تأرجُح الأوراق الملونة وهي تطير في الهواء، سمعت صوته قبل أن تصل القصاصات إلى الأرض:

«عندما تنظرين إليَّ أرى في عينيكِ عفريتًا من الجن، أجمل عفريت يمكن أن يُرى».

استحتْ ولم تتكلم، التقطت المزيد من عشب الأرض، كان يمتص توترها عندما تقطعه، طلب منها إبراهيم أن تلتفت إليه، رفع ذقنها بسبابته حتى أصبحت عيناها في مواجهته، ضم وجهها بين راحتيه كما يحمل الإنسان كتكوتًا خرج لتوه من البيضة:

«دون لف أو دوران، هل تقبلين الزواج بي؟».

خرجت جملته غريبة وغير مؤكدة، مثل سهم انطلق في الظلام، حتى شُبه لصاحبتنا أنها لم تسمع ما قاله جيدًا، أعاد عليها السؤال، كان يريد أن يسمع منها كلمة: «موافقة»، غير أنها لم تنطق بها، تذكرت ما قالته لها أختها نفيسة: «الرجال لا يُفضِّلون المرأة السهلة»، شعرت ثومة بدوخة خفيفة وهي تستطعم الكلمات، فأكمل الشاب في السكة نفسها دون هوادة:

«أنا أحبك يا ثومة وأريد الزواج منكِ».

فغرتْ فاها كأنه صوَّب إليها رصاصة، وجمتْ لدقيقة، شع وجهها بالنور وفتر ثغرها عن ابتسامة رطبتْ شفتيها.

لكن ما قاله بعد ذلك استحق منها تركيزًا أكبر:

«سنتزوج في السر».

أزالتِ الغبار والقش عن مؤخرتها وابتعدت دون أن تتكلم، عادت جريًا إلى الخيمة، واعتبرت ما مرَّ أمامها مجرد حلم، كانت تعتبر الحياة كلها حلمًا لا تملك إمكانية الاستيقاظ منه.

انتبهت لسعال زوج أمها، فعرفت من خلال نظراته ونبرة صوته أنه كان يراقبها، قفز من خلف أوتاد الخشب التي تحمل مسرحهم الصغير، الكيس الملون المنفوخ الذي يعتمره جعله يتصبب عرقًا، فسالت ألوان وجهه مثل لوحة لا تزال قيد الرسم.

لم يسألها عن الرجل وماذا يريد، لكنه استفسر عن مصير المائة جنيه، ثم رمقها بنظرة ساهمة بلهاء، عندما أخبرته بأن الرجل صاحب العباءة الجوخ يريد الزواج بها شرد بعيدًا، وقال ما لم تتوقعه:

«لا يا ثومة، زواج لا، لقد أخبرتكِ بالحكاية القديمة من قبل، وسأعيدها عليكِ ألف مرة لأني لا أستطيع نسيانها، فقد فعلتْها أمك من قبلك، تركتني وتزوجت تاجرًا من بلد بعيد، تمنيتُ أن يأخذوا عيني ولا يأخذها غيري، وقد كانت على يقين من صدق مشاعري، لا أعرف لماذا عاندتْ ولم تستمع لنصائح أحد، ليلة

زفافها على التاجر الغريب جُن جنوني وطار برج من عقلي، لكن بعد عامين فقط من الزواج طردوها وتزوج التاجر من امرأة أخرى لتنجب له الولد، فقد أنجبت أمك منه بنتين، ماتت الكبيرة بعد أيام من ولادتها، وعادت بك أنتِ، كنتِ راقدة في اللفة فوق ذراعها، مجرد قطعة لحم حمراء قبل أن يطلقوا عليكِ اسمًا فاخترته لكِ أنا، عندما عادتْ أمك لم تجد في الدنيا أحن عليها من رجل أحبها بصدق، أنا. لم أمانع، ما صدَّقت، تزوجتها وأنجبتُ منها بنتين جميلتين، متساويتين في كل شيء مثل أسنان المشط، واتخذتك أختًا ثالثة لنفيسة ومُهجة. يا ثومة الزواج شيء والتسالي شيء آخر، وأنا أخاف عليكِ من كسر النفس، فأمك لم تمت كما أنبأتكِ من قبل بالحُمى، بل ماتت بالمذلة».

توقفت يد ثومة عن تقطيع العشبة:

«ولكنه قال لي...».

قاطعها قبل أن تكمل:

«مهما كان ما قاله لكِ، فقد قالوا لأمك أكثر منه، الكلام المعسول لا يكلف صاحبه شيئًا، نحن نسلي الناس فقط لفترة من الزمن لنفوز بالمعلوم، ثم نفرّ منهم قبل أن يكتشفوا ضعفنا، هل سمعتِ من قبل عن شخص يقول نكتة مدى الحياة؟ نحن مثل نكتة بائخة، لذلك لا نذهب إلى قرية واحدة مرتين».

سحب قرطاسًا منقوعًا في الماء وخطف قبعة، وارب شق قماش واعتلى المسرح من الخلف مرة أخرى، فتح الستار الذي يطل على الجمهور فابتلعته الأضواء.

«كيف يوافق على مصاحبتي له ويرفض زواجي منه؟ يبدو أنه لكثرة تبديل أقنعة التنكر قد نسي وجهه الحقيقي».

قالت ثومة في نفسها ثم قامت. تركت مقعدها الخشبي والكيس المليء بالألعاب الملونة وابتعدت قليلًا، تناهى إلى سمعها دوي يخرج من الخيمة، صوت معدني لاصطدام طاسين كبيرتين فوق المسرح، وصوت مصاحب لرجف الطبل.

«والآن أيها السادة، حان وقت سيتغير فيه كل شيء، الحياة التي كنتم ترونها سهلة مثل شرب العصير، سيثبت لكم ساحرنا أنها صعبة مثل شربة زيت الخروع، فما سترونه الآن هو جزء صغير من التفاصيل، لكنه يُعبِّر عن الحياة كلها».

ابتعدت ثومة عن الخيمة فخفت قرع الطاسين المعدنيتين ثم تلاشى، نشَّفت يديها من الماء في فستانها القصير، عندما شعرت بلسعة برد خفيفة سحِبت

رقبة جوربيها لأعلى، نفضت حذاءها من الطين الذي علق به، ابتعدت أكثر فأكثر حتى أصبحت الخيمة في حجم الكف، كالمنومة خَطتْ، تريد أن تبتعد لأطول مسافة ممكنة، ستفكر بجدية في عرض الشاب صاحب العباءة، كانت تحذيرات زوج أمها تتبدد كلما ابتعدت عن مُحيطه، قالت لنفسها: «الحياة بلا مغامرة مثل لعبة مفقوسة».

خلال برهة خاطفة اتخذت قرارها بالابتعاد عن عالم الخيام، كانت تُثبِّت نظرها على الأفق المُظلم أمامها، وكأن حسمها للأمر مكتوب أمامها فوق لوح، ساقتها قدماها حتى وصلت إلى مجرى مائي يحده الخوص من الجانبين، مغطى بكتل عشبية متفرقة، يلمع سطحه تحت ضوء القمر، أوحت لها رعشة المياه التي تشبه التجاعيد بأن الترعة كائن حي، رأت شيئًا يشهب في الظلام، شُبه لها أنها عنزة مطت بطنها وهي تقفز حتى أمكنها عبور الماء إلى الشاطئ البعيد المعتم، تحول الكائن الذي رأته إلى هيئة مختلفة قبل أن يختفي في الهيش، نظرت خلفها لتقيس المسافة التي تفصلها عن الخيمة، كانت قد ابتعدت كثيرًا عن العَمار والناس، مدت رأسها بين عودين من الخوص، فهُيئ لها أن النجوم المنعكسة في المياه السوداء تناديها، قبل أن تخلع نعليها وتلبي النداء امتدت يد من الخلف وخطفتها، التفتت فرأت إبراهيم يتأملها بعينين صافيتين، أعطى ضوء القمر عباءته لونًا فضيًّا لامعًا، ارتعشت يده وهو يقول لها:

«لم أترك المكان، اختبأتُ وسرت خلفك خطوة بخطوة، كنت أريد أن أعرف ردك، وما هو قرارك في أمر زواجنا؟».

فقالت ثومة وهي لا تزال تحت تأثير نداء الماء:

«أنا لا أتزوج في السر أبدًا، فأبي تاجر كبير ويسكن في البلد البعيد».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣

اختفى إبراهيم في تلك الليلة ولم يظهر له أثر في الليالي التالية، عندما تراجعتْ ثومة وقررت الموافقة على الزواج منه في السر كان الأوان قد فات، فقد طويت الخيمة وخُلِعت المتاريس من قرية ميت سالمة، وارتحلتْ مع أختيها وزوج أمها إلى قرية مجاورة تصلح للتخييم، ثم قرية أخرى، وثالثة، فرابعة، تاهت الخيمة بأصحابها في ربوع الأرض التي لا تتوقف عن الدوران.

طوَّر زوج أمها عمل السيرك خلال جولاته الأخيرة، زوّد فرقته بآكل نار وعازف أكورديون ورجل تحيط بعنقه الثعابين، راودته فكرة جلب حيوانات مدربة وإضافة فقرة خطرة للسيرك، كما زوَّد عروض الأراجوز وخيال الظل ببعض الحِيَل بعد أن تعلَّم اللعب بأضواء الكلوبات، بدأ يدرب ثومة بتحريك يديها على أشكال الحيوانات خلف ستار، كما ألحق بعض الاسكتشات الهزلية الخفيفة بفقرة الساحر بعد أن اشترى أدوات تنكُّر جديدة، وبدأ دخلهم يزيد مع ازدياد الزبائن، فخصص دخلًا ثابتًا لرجلي أمن رسميين لحفظ النظام واستبعاد اسمه من كشوف البوليس.

أوكل لها زوج أمها مهمة وضع الخرز الملون في عيون الأراجوزات، وحياكة العباءات الصغيرة الملونة لها، وبرْم الطراطير الحمراء التي تنتهي بكُرة تهتز من أقل حركة.

«أخيرًا أصبح لكِ فائدة»، كان يقول لها وهو يستلم منها الدمى التي سينطق بلسانها، فتبتسم وتقول: «أبعدني عن الاختلاط بالناس وسأفعل لك كل ما تريد».

بعد انقضاء ثلاثة أشهر فقدت ثومة الأمل في العثور على صاحب العباءة الجوخ الذي لا تعرف أين ذهب، فقررت أنها ستلقي بنفسها أمام أي شخص آخر يخلصها من حياة السيرك وطي الخيام.

«لا يكثر عليك يا رب أن تجعلني أزرع شجرة، أجلس إلى جوارها، أرويها وأراها وهي تكبر وتطرح، لا أريد أن أظل مسافرة طوال عمري بلا وصول».

كانت سارحة في دنيا الله خلف المسرح المظلم ذات ليلة، تُلقم الموقد بقطع الحطب وتنفخ في النار حتى تتأجج، أثناء رميها بقطع لحم في إناء كبير رأته أمامها، إبراهيم بشحمه ولحمه وعينه اللامعة، تأملها طويلًا وهي تقف كعفريت خارج من قمقم، نشفت يديها على فستانها، اتضحت ملامحها ببطء من دخان الطبيخ، قال لها إنه قرر كل شيء خلال الأشهر الثلاثة الفائتة، سيتزوجها في العلن أمام الجميع، وليحدث ما يحدث. شدت ثومة الدبوس الخشبي الكبير

الذي كان يُثبِّت كعكة شعرها فوق رأسها، فانسابت أمواجه السوداء وغطت كتفيها.

دار بينهما حوار كأنه الحلم، كلمات حلوة ومُسكرة تُشكِّلُ نفسها دون شفاه آدمية تنطق بها.

«لو تمالك نفسه وسكت دقيقة عن الكلام، كنت سأوافق على الزواج منه في السر»، قالت ثومة لنفسها وهي تفكر في كيفية تنفيذ قرار الهروب.

تشابكتْ أيديهما واختلط عَرَقهما، ابتعدا عن الخيمة، وعن القرية، خرجا من حدود المحافظة، ركبا سيارة، ثم هدهما التعب فناما نصف يوم في قطار.

«بين ليلة وضحاها أصبحتُ برفقة رجل يحبني»، تداعبها الكلمات الحلوة وهي تبحث عن موضع قدم في بلدها الجديد.

بحث عنها زوج أمها ليلة بطولها، عرف من خبرة الحياة أنها هربت لتتزوج من الشاب صاحب العباءة الجوخ، لكنه، ولشيء في نفسه، قدَّر أن حظها لن يختلف كثيرًا عن حظ أمها، وأن دورة الحياة ثابتة لا يتغير فيها إلا التفاصيل، بقي رأسه ممدودًا للأمام كجمل وهو يقول في نفسه:

«طارت ثومة من بين أصابعي كبيضة كبيرة مُعبأة بالبوتاس».

عاد إبراهيم إلى قريته البعيدة وهو ممسك بيد زوجته الصغيرة، لم يتدخل أبوه في اختياره، ولم يفرض عليه زوجة بعينها، لكنه قال له تحذيرًا يرتدي ثوب النصيحة:

«الاختيار شيلة صاحبه».

تحمَّل إبراهيم في سنة الزواج الأولى جهل زوجته الطفلة بأغلب أمور الحياة، عندما دربها على الاختلاط بالناس كانت تنجح أحيانًا وتفشل كثيرًا، تسرح بشكل دائم ممن يكلمها، فيحسب محدثها أنها لا تقيم له وزنًا أو احترامًا، لفت زوجها نظرها إلى ضرورة تعلم كلمات جديدة، لكنها كانت تحرث بما توافر لديها من جواميس.

تغَلَّب إبراهيم على تلك المشكلة بأن خصص لها امرأة ترعاها، تُدبر لها طلباتها وتتوجه إليها بالمشورة في أمور الحياة، وذلك ليجنب زوجته الخروج كثيرًا وإيقاعه في حرج دائم، كانت المرأة في ضِعف عمرها واسمها لوزة.

ظلت الحال تسير على تلك الوتيرة قرابة عامين، القطن يُجنى والفلوس تزيد، لكن هناك شيئا لم يستطع إبراهيم معه صبرًا، تأخر الإنجاب، وثومة من ناحيتها لم تقصر في ابتلاع كل ما يعرض عليها من حبوب أو وصفات عطارة، وقد زارها طبيب اختصاصي مرتين للسبب نفسه.

حدثتها لوزة عن اقتراح زوجها الذي يعمل سائقًا، كان يقوم بتوصيل الفلاحين إلى البندر، قال لها إن الدكاترة في مصر شطار، وإنه يوصل أحدهم كل أسبوع حتى باب قصر العيني، عندما فاتحت ثومة إبراهيم وافق على الفور، ووضع ربنا ـ كما قالت ثومة فيما بعد ـ سِرّه في أضعف خلقه، فعبده زوج لوزة وسيارته «الدودج» العتيقة كان فيهما السر كله.

وحبلت ثومة من إبراهيم.

بعد تأكيد الخبر أقاموا ليلة لله مثلما يفعلون في مثل هذه المناسبات، انقضت الأشهر التسعة لكن حمل ثومة لم يخرج إلى النور، كانت فقط تتألم داخل غرفتها ولا تسمعها إلا لوزة، فإبراهيم مرتبك بالخارج، وأبوه الذي كان يحسب كل شيء بالقنطار يترأس جلسة تجارة مع بعض مزارعي القطن.

في جوف الليل سمعتْ لوزة صرخة متواصلة لا يقطعها إلا الشهيق، فاستدعت امرأتين من أشطر القابلات، عندما أكدا أن الولادة وشيكة، أرسل أبو إبراهيم إلى الكلوباتي لتزويق البيت بالنور.

لم تنجح القابلتان في تخفيف ألم ثومة وإخراج الحمل من جوفها إلى ذراعيها، فاضطرت لوزة لاستدعاء أم أيوب التي تُعتبر آخر الحلول، امرأة عجوز تتباهى دائمًا بأنها سبب خروج نصف سكان القرية إلى الحياة، وهي التي انصرفت منذ قليل بعد أن أخذت عطيَّتها من كبير العائلة، ووضعت المولود الغريب فوق صوان الشمعدان.

سبعة أيام والوجبات التي تعدها لوزة أصبحت مكررة، والكلام أيضًا، حتى النظرات والإيماءات، لم يعد أي شيء يحمل جديدًا.

بعد أن استطاعت ثومة القيام والحركة ترددت في مغادرة غرفتها، كانت تفكر كيف ستواجه العالم خلال الأيام القادمة؟ سألتْ رفيقتها الوحيدة في الغرفة:

«هل اليوم هو السابع يا لوزة؟».

هزت لوزة رأسها وهي تقطع ثمرات فاكهة في طبق، كانت تعرف معنى السؤال، لذلك لم تزد في الكلام، فلم تسمع صاحبتنا هيصة أو ترى عيال الجيران يطالبون بحقهم في أكياس السبوع، لم تتدفق الهدايا فوق سريرها ولم تدر قِدر البخور ويعبق غرفتها، كل ما يحدث لها ينذر بأن الأيام القادمة ستكون صعبة.

في مساء اليوم السابع عاد إبراهيم من الخارج، ألقى عباءته ووقف قليلًا في مدخل الدار، رأى أباه جالسًا كما اعتاده، يعقد صفقة قطن مع بعض التجار ويفاصل في السِعر، فوقف أمام غرفة زوجته مترددًا بين السكوت والكلام،

ثم دفع الباب كأن لديه الكثير ليقوله، لكنه عندما أصبح في قلب الغرفة لم يقل شيئًا، قامت لوزة ورفعت طبق الفاكهة عن الكرسي، دعته للجلوس فركز نظراته على ثومة ولم يتكلم، لملم أطراف عباءته وترك الدار كلها.

اليوم الأحد، وغدًا الاحتفال بشم النسيم، الفلاحون يستعدون لدق الطعمية في الحجارة الصوان وغلي القرفة في الحلل النحاس الكبيرة لزوم السهرة، أما الرجال فغالبًا يجلسون على المقاهي يحششون، وكان إبراهيم يشرب الحشيشة مع أصحابه «تفاريح» نَفَس من هنا أو حجر من هناك، لكنه منذ أسبوع أصبح يأكل الحشيشة أكلًا، وأحيانًا يراهن عليها بلعب العصا، وغالبًا يكسب، كان مدفوعًا للتفوق والانتصار في أي شيء، حتى ولو مجرد لعبة، فيشرب طوال الليل دون أن يدفع.

جلس في منتصف القهوة التي يتسلل الدخان من بين فلوق النخل في سقيفتها، تجمع الشباب من القرية والكفور المجاورة للاحتفال والسهر، تسامر معهم إبراهيم وهو يبحث عن القزمِ حاملِ مصفاة النار، كان أصحابه يمصون القصب وينظرون إليه، يسمعهم دون أن تتحرك ألسنتهم، يزغرون من تحت عيدان القصب المائلة على أفواههم، فتأكد إبراهيم أن خبر إنجابه للطفل الغريب قد انتشر، وأن السر لم يعد سرًّا، فوضع همّه كله في الحشيشة، شرب رُبع قرش بعد رُبع، ووقف القزم الذي يحمل النار في المصفاة يحفزه بصوته الحماسي:

«المجاني اطلبه ثاني. وأنت تكسب يا عين الأعيان، فلماذا لا تشرب؟».

لم يكن ذلك الحشيش مجانيًّا، فقد دفع إبراهيم مُقابِله أغلى الأثمان، بعد جولات التحطيب المتتالية فاز على كل من رفع العصا، تعرَّق ومالت عمامته، شرب كثيرا حتى تاه عن المجلس، ثم قام يغسل وجهه ليستفيق، فسمع صوت القزم والمصفاة المتوهجة بالجمر تتأرجح في يده:

«المجاني اطلبه ثاني، عين الأعيان عيني يا عيني».

شرب إبراهيم مرتين، وفي الثالثة أمسك بصدره مرة واحدة لم تدم طويلًا، سمع رواد المقهى صوت الكرسي الذي يحمله وهو يترنح ويتفسخ، رفع الجميع أيديهم أمام وجوههم كنوع من تبرئة أنفسهم من أي مسئولية، منهم من جرى وترك القهوة ومنهم من وقف يتفرج، القليل من الحضور حاولوا المساعدة، جرَّه أحد الرجال فزحَّف بقدميه قطع الزجاج المتهشم، جسَّ الرجل نبضه وحملق في الحضور طويلًا، ثم حمله فوق ظهر بغل يلوك مصاصة القصب والقش، هز الرجل ذيل البغل الذي أحضر إبراهيم إلى القهوة في بداية السهرة، خبط مؤخرته فتحرك من تلقاء نفسه وشق طريقه

وحده إلى الدار، تلقَّتْ ثومة الصدمة كلها، عندما هزتْ زوجها ووجدته بلا نَفَسْ، مُستلقيًا بالعرض على السرج، مجرد جثة متوازنة فوق ظهر دابة.

لم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء لتعرف ثومة ما ستصير إليه الأمور بعد ذلك، فقد أصبحتْ فأل شؤم على البيت وأصحابه، ولم يعد وجودها مرغوبًا فيه بأي شكل، بدأت تستوعب ذلك من بعض التغيرات التي جرت بسرعة، فقد سحبوا منها لوزة التي كانت تمثل لها همزة الوصل الوحيدة مع العالم الخارجي، واسمها لم تعد تسمعه إلا وهو مصحوب باللعنات والشتائم، وشباك غرفتها الوحيد جعلوا أمامه مقلبًا للسباخ، وبابها أصبح مفتوحًا ليل نهار لاستقبال بذاءات الصغير والكبير، كل شيء من حولها يقول إنها يجب عليها الرحيل وترك جميع ما يخصها، عدا ذلك الشيء الذي جلبته إلى الحياة، ابنها صاحب الشكل الغريب.

لم يعد أحد يتحدث إليها، أوكلوا لها المهام الشاقة في البيت، جعلوها تعمل مثل نحلة، تطحن العلف للحيوانات، فتتقرَّح ذراعاها من الاحتكاك بالقش عند رميه في المطحنة، كما جعلوها تُعبئ السباخ في المقاطف وتنقله من مكان إلى آخر، أثناء أوقات الراحة كانت تُخزن أجولة القطن التي تنتظر صغار التجار وصنايعية المنجدين.

فكرتْ في العودة مرة أخرى للبحث عن أبيها في البلد البعيد، لا بد أن لها ميراثًا مُعتبرًا، لا بد أنه مات، فقد كان يحتضر منذ سنوات، لكنها خافتْ، فالمرأة التي طردتها وهددتها بتعليقها فوق عمود النور مؤكد لا تزال هناك.

لم يحدث أي تغير في حياتها بفعل التمني وحده، لا بد أن يصاحب ذلك التمني تحرُّك ما على الأرض.

قبل أن تستيقظ القرية لتستقبل شروق الشمس لملمت ثومة أغراضها البسيطة وحُليها، ثم حملت قطعة اللحم الحية ملفوفة في بطانية خفيفة وخرجت، لمحتْ غرفة أبو إبراهيم مضاءة، تخرج منها أدخنة السجائر وخلف زجاجها ظِل ضبابي لشخص يتحرك ببطء.

نظرتْ لأعلى حيث حماها وميراث زوجها، لكنها، وفي لحظة كتلك التي تنسجها الأحلام، قررت تخليها عن كل شيء، وليحدث ما يحدث.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

٤

وصلتْ صاحبتنا إلى أطراف القرية عندما ظهر الخيط الأول من الفجر، ساقتها قدماها وهي تحمل رضيعها حتى وصلت إلى الترعة التي تفصل بين بلدتين، لم تمكث طويلًا أمام المياه، آلمتها ذراعها من شيل المولود، اجتازت الزراعة المنعزلة عن العَمار، اتجهت نحو أقرب طريق أسفلتي وهي لا تعرف إلى أين ستذهب، عندما فرشت الشمس الجزء الأكبر من الأرض لمحتها لوزة تشير لسيارة، فسحبتها من يدها وانعطفت بها بعيدًا عن أطراف القرية.

«أين كنتِ ذاهبة؟».

شردت ثومة وقالت:

«أبحث عن أشخاص يرغبون في وجودي معهم».

ابتسمت لوزة وربتت كتفها برفق:

«إذن هو بيتنا ولا مكان غيره».

كان بيتًا صغيرًا يحيط به البرسيم من كل جانب، طرقت لوزة الباب وفتح زوجها، قال دون أن يعرف شيئًا:

«أهلا أهلا».

وقالت لوزة:

«ستظل الست ثومة ضيفتنا حتى يحلها الحلَّال».

هز عبده رأسه وهو يهندم ملابسه ويساوي شعره الخفيف:

«طبعًا طبعًا».

«حصيرة الصيف واسعة، والجود بالموجود».

قالت لوزة فردَّتْ ثومة باقتضاب:

«آه».

ثم اكتفت بتناول القليل من الطعام وقالت:

«شكرًا على المضايفة، لكني أريد أن أسكن بعيدًا عن هذه القرية، لم يعد لي فيها شيء».

فسألتها لوزة:

«يا حبيبتي، أنتِ لم تعودي وحدك في هذه الحياة، وهناك أشياء لا بد أن تنتبهي لها، فهل ذهبتِ مثلًا لتسجيل الولد في دفاتر المواليد؟».

كان السؤال غريبًا عليها، لم ترد إلا بكلمة واحدة وهي ساهمة:

«ولد؟».

فردت لوزة عليها بطريقة تمثيلية مرحة:

«أي نعم، تذهبين إلى طبيب الصحة وتقولين له اكتب عندك، اسم الولد ويوم ميلاده بالشهر والسنة، منذ هذه اللحظة سيصبح اسمه.. آه صحيح هل اخترتِ له اسمًا؟».

ردت عليها ثومة بسرعة، كأن الاسم سقط عليها من السقف:

«آدم، سأسميه آدم ولكني لن أستخرج له شهادة ميلاد، فهو في ظروفه هذه لن يدخل مدرسة أو يحمل سلاحًا في الجيش، لن يعمل، باختصار، لن يكون مرغوبًا فيه مثلما كانت أمه دائمًا، فالشخص الوحيد الذي رغبها مات».

في المساء اشترت لها لوزة بعض الحليب، فمنذ ثمانية أيام واللبن يرفض أن يُدر بشكل طبيعي، ألمحت لها لوزة أن اللبن لن ينزل إلا بعد أن يحننه فم الرضيع، أعادت عليها ثومة فكرة السكن بعيدًا، ووعدتها لوزة أنها ستذهب مع زوجها غدًا ليبحثا عن بيت رخيص، وبدأت تفكر فيما يمكن أن تحتاجه ثومة في الأيام القادمة، فأحضرتْ لها بقجة ووضعت بها بعض مستلزمات ضرورية تسهل عليها العيش بمفردها: أرز وسكر وكوبان وبعض الأواني البسيطة، في آخر الليل أضافت بطانية وشبشبًا وبعض الملاعق والسكاكين، خرجتْ من غرفة جانبية وهي تحمل في يدها علبة شاي مستوردة وقالت: «خُذيها وسيشتري عبده غيرها».

ثم وجهت سؤالها لزوجها:

«هل ستغضب يا عبده لو أخذتْها؟».

وقال عبده:

«أبدًا أبدًا».

عبده زوج لوزة قليل الكلام، في عينه دائمًا نظرة أقرب لنُعاس، أو رغبة نائمة، يعرض خدماته السخية على ثومة وهو ينظر إليها بطريقة ساهية غير مريحة. لم تكن رؤيته تثير الاحترام، ولا الخوف، تشعر ضيفته فقط بعدم الراحة، كان يوزع نظراته بين ملامح الرضيع ووجهها بتركيز أكثر من اللازم،

فتدخل في نفسها وتنكمش أكثر فأكثر، لذلك قررت أنها ستغادر المكان عندما يدخل الليل وتهدأ الحركة، لن تنتظر حتى يعثرا لها على بيت رخيص.

مدفوعة بإحساس غريب تسحبتْ لتدبر أمرها، تأملت الإسورتين الذهبيتين في معصمها والخاتم في بنصرها، فتحتْ ذيل جلابية قديمة عبأت فيها متعلقاتها البسيطة، وقبل أن تربط كميها سمعت لوزة توشوش زوجها:

«مسكينة ثومة، سينتهي الولد خلال أيام، فهذا النوع من الأطفال لن يستطيع بلع اللبن، سيتحول إلى هيكل عظمي، وعندما لا يريده أحد سيموت».

بهتت الضيفة وعشعش الحزن في ملامحها عندما سمعت هذا الكلام.

أقبل الليل وراح الزوجان في النوم، فخرجت ثومة بعد أن سهَّل الظلام حركتها، جمعت أغراضها البسيطة، وقبل أن يؤذن الفجر غادرت المكان.

كانت تدب الأرض بخطى بطيئة، عيناها كبيرتان برَّاقتان، تلمع بدهشة مَن لا يزال يأمل في اكتشاف شيء جديد.

بعد أن طلع الصبح وبانت معالم الأشياء اكتشفت لوزة تبخُّر ضيفتها في الظلام، خرجت تبحث عنها حول البيت، ثم مدت خطواتها إلى الشوارع المحيطة، فلم تجد لها أثرًا، لم تعرف أين يمكنها العثور عليها مرة أخرى!

في طريق عودتها إلى البيت سألت بعض المارة وهي تُدلي بأوصاف ثومة، لم تحصل على معلومات مفيدة، قال لها صبي يسحب بقرة إنها اتجهت نحو الترعة، وقالت لها فتاة تمتطي حمارًا إنها رأتها تهرول باتجاه الكوبري، أغلب المارة قالوا إنهم لم يروا امرأة بتلك الأوصاف، لكن بعض طاعنات في السن يفترشن المصاطب أجمعن على أنهن رأينها بعد الفجر بقليل، أو بالأدق رأين ظِلًّا ينطبع فوق جدران البيوت كالشبح، يحمل بقجة معلقة في عصا غليظة فوق كتفه ويتبعه كلب، اختلف الشهود حول شيء واحد، فبعضهم قال إن الذي رأوه يسير خلف الشبح كلب، وأقسموا إنهم سمعوا نباحه، وبعضهم قال إنه خروف، وأقسموا إنهم رأوا بأعينهم إليته تهتز خلفه بشكل واضح.

لم تقتنع لوزة بأن الظلام ابتلعها بهذه السهولة، أكملت البحث عن ضيفتها بدافع الفضول، عند أطراف القرية لمحتْ ثومة جالسة بجوار طاحونة مهجورة:

«لفيت البلد عليكِ يا بنت الناس».

جلستْ بجوارها تستريح، هندمت ملابسها ونفضت كميها من القش، وأثناء ربط المنديل مرَّتْ برأسها فكرة:

«لماذا لا تعملين معي يا ثومة؟».

كانت هذه هي المرة الأولى التي تناديها باسمها مجردًا، فدائمًا كانت تسبقه بكلمة «ست»، قالت ثومة: «وماذا تعملين؟».

فرَدتْ لوزة ببساطة:

«أصطاد».

أخذت تشرح لها طبيعة مهنتها التي وفرت لها مساهمة معتبرة في بناء البيت مع زوجها، بعد الفجر بقليل تخرج مع ثلاث نساء، يلبسن قمصانًا بنصف كم تحت الجلاليب السوداء، وعندما يصلن إلى الماء يخلعن الجلاليب ويغصن، تقبض كل امرأة على مصفاة ألومنيوم كبيرة، ثقوبها في حجم الإصبع، ينتشلون بها الأسماك الكبيرة، ثم يلقين بالرزق المقسوم في حلة كبيرة تنتظر الصيد على الشاطئ.

مدت لوزة يدها فقامت ثومة بعد أن وافقت بهزة من رأسها، عندما عادتا إلى البيت كان عبده قد ذهب بسيارته الدودج في توصيلة إلى القاهرة.

في المساء، وضعت ثومة بعض المبادئ التي ترضيها للعيش في بيت وصيفتها القديمة، فلن تقبل أي مساعدة بفلوس لم تعمل بها، ومهام البيت كالطبخ والكنس والتنظيف ستتقاسمانها، هي يوم ولوزة يوم، والأهم من كل ذلك أنها ستشارك بنصف ما تكسبه في مصروف البيت، وتشيل النصف الآخر لآدم، فوافقت لوزة على شروطها.

صباح اليوم التالي خرجت ثومة بصحبة لوزة إلى حيث الرزق المقسوم، كان حظها سيئًا في أول غطسين، فقالت لها لوزة:

«لا بد من تمكين المصفاة جيدًا بين الصدر والذراعين حتى لا يقفز منها السمك الصاحي».

كانت المياه في البداية تدق ضلوعها، لكنها بعد تنفيذ التعليمات أصبح رزقها الأوفر بين جميع الغاطسات، رفعت حلتها الثقيلة فوق رأسها عائدة إلى البيت، أسندتها بيد وبيدها الأخرى حملت رضيعها فوق صدرها.

خلال ثلاثة أيام فقط تعلمت العوم في الترعة مثل سمكة بلطي.

بدأت ثومة في ابتكار طرق جديدة للصيد، مرة عن طريق جراكن مشقوقة مليئة بدبابيس لا تفلت منها سمكة، ومرة عن طريق رمي كيس في الماء ثم ثقبه وتصفيته، فلا يبقى إلا الصيد بداخله.

ستة أيام في الأسبوع لمدة ثلاثة أشهر، لا يكاد الترتيب يتغير، بعد الفجر تخرج مع لوزة وتمران على باقي فريق الغاطسات، تعود مع مضيفتها بعد الظهر

بقليل، محملة برزقها، أحيانًا يباع الصيد كله، وأحيانًا يصْطَفون منه بعض الأنواع للشي والقلي في البيت.

غاب عبده عن المشهد وأصبح دوره هامشيًّا، يأتي من عمله قرب المغرب، يأكل وينام ساعتين، ثم يسهر أمام البيت يشرب الجوزة، ينام عندما تسطله نسمة باردة أو يهده التعب، وبدأتْ ثومة تشعر أنها ظلمته، فهو مجرد رجل مثل كل الرجال، يحب فقط النظر إلى النساء، لم تشغل نفسها إن كان هذا تودّدًا زائدًا أم قلة ذوق، الْتمست له العذر، قالت إن عدم إنجابه يساعده على مط وقت الفراغ والتأمل.

لكنها تعود مرة أخرى وتُكذِّب نفسها، ففي قلب الليل، وأثناء ما كانت تحت سيطرة النعاس، سمعتْ خرخشة خارج تعريشة غرفتها، بين خوص السقف تناهى إلى سمعها صوت يشبه الفحيح، لكنها لا ترى شيئًا، فاللمبة السهاري تضيء الغرفة فقط، والعالم كله بالخارج ظلام في ظلام، في بعض الليالي كانت تطفئها، فترى حركة يد واضحة تضم الخوص وتنسحب إلى الخلف، وتلمح عينه في ضوء القمر، هي نفسها العين الخضراء الواسعة، ورغم ذلك فإنها كانت تُكذب نفسها أيضًا.

ذهبتْ لوزة لتبيع الأسماك ذات صباح، وعادت ثومة وحدها إلى الدار، خلعت ملابسها لتغسلها في برميل وتدق عليها بحجر، حممت آدم أولًا وأخذتْ تلاعبه وهو عريان، بالكاد تلمس قدمُه الأرض، فيترك كعبه الصغير أثرًا مطبوعًا في الطين مثل مخالب قط، ألبسته ونيَّمته بجوار شجرة، كان يتابع بعينه الصغيرة دوامات الذباب، ويتأمل أسراب النمل التي تخرج من ثقوب غير مرئية في جذع الشجرة، الطاسة فوق الحطب المشتعل تخرج وشيش القلي، السمك الذي أفلت من البيع سيصبح هو الوجبة القادمة بعد أن تعود لوزة، كانت تقلب البلطي ثم تعود إلى دق ملابسها بالحجر، وأثناء اندماجها في عصر قميصها بأكبر همة ممكنة انفتح الباب من خلفها، وقعت تفاحة من كيس كان عبده يحمله، وعندما نزل ليلتقطها لم تعثر عليها يده، كانت قد تدحرجت وأوقفتْ قدم ثومة الشمعية تقدمها، وضعت جلابيتها المبللة فوق القميص الملصوق على جلدها، لم تعرف كيف تحثه على الابتعاد، فهو صاحب البيت وهي مجرد ضيفة، لم يخلّ عبده بما يمكن أن يفعله رجل في مثل هذه الحالات، اقترب وأخذ يقول كلامًا تافهًا عن أشياء غير مترابطة:

«ألم تأتِ لوزة؟ لقد اشتريتُ التفاح والموز، حتى شوفي، الولد يريد أن ينام، التفاح ناضج، الجو، الطعام، الراديو يذيع أنباء الحرب».

اقترب ومد يده إلى طاولة الغسيل، كانت ثومة ترتدي قميص لوزة، لكنها لأول مرة تعرف ما معنى أن ترتدي قميص لوزة؟ انتفض جسدها داخل

ملابس زوجته المبتلة من أثر الغسيل، تريد أن تؤكد لصاحب البيت أنها كائن مختلف، كان قميصها ملتصقًا على صدرها وردفيها، وملابس عبده ملبدة بالعرق والرغبة، خلع الكاسكيت عن رأسه ونحاه جانبًا، ثم تغيرت كلماته الاستكشافية غير المترابطة بهدف واحد وواضح:

«لوزة ستتأخر».

لم ترد ثومة.

«أنا مُتعب. سأذهب لأنام».

لم ترد أيضًا، فقال كلامًا فارغًا آخر، الجُمل لا رابط بينها ولا هدف إلا التقرّب، أي كلمات تصلح لأن تكون خلفية، أي ضجيج يملأ المساحة الصامتة ويسمح بالانقضاض، أراد عبده أن يُخفي جهده المبذول في تقليص المسافة بينهما، وأرادتْ ثومة أن تُبعده كلما تحسست اقترابه، خلال ثانية أصبحتْ مثل قطعة خشب، ثابتة ولا تقوى على اتخاذ أي قرار، لوهلة، تجمدت وماتت كليًّا، أمسك بذقنها من الخلف ولواها تجاهه فلم تطاوعه، ملأت الحوش رائحة سمك يحترق، كانت لا تزال ممسكة بالحجر، نصف قالب من الصوّان، جمدها الخوف فأصبحتْ تُشبه الحجر الذي تقبض عليه، جذب عبده كتفيها، فالتفتت ببطء، عندما التقتْ عينُها الواسعة بعينه الخضراء، كان ردها أسرع مما توقع، دارت به الدنيا وانزلق كيس التفاح كله من يده، تساقطتْ أصابع الموز ووقع بعضها في الطاسة، فقد لطمته بالحجر خلال جزء من الثانية، ضربة واحدة شجَّتْ رأسه، كانت يدها قوية وقاسية بسبب خوفها، قال آه واحدة ثم سقط فاقدًا النطق.

ارتدَت الجلابية المبللة فوق قميصها، نزعتْ تفاحة من يد آدم ورمتها، حملته فوق صدرها، وضعت قماشة سوداء على رأسها وخرجتْ.

ترسَّختْ لديها قناعة لا تقبل الشك: جميع الناس لا يوثق بهم، والسلامة دائمًا في البُعد عنهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥

تجاوزتْ ثومة أطراف البيوت، تخطت الزراعة سيرًا حتى رأتْ شريط الأسفلت، فكرتْ في كل شيء يحدث من حولها، الدنيا شاسعة وهي ضئيلة، فكرتْ، لو أنها خسرت حياتها فلن يضير ذلك الحياة الكبيرة في شيء، قالت لنفسها، لكنها سرعان ما استغفرت ربها وقامت تزيل القش عن ملابسها وتكمل المسير.

تحت نخلة جلستْ، كانت تُسقِطُ عليها حبًّا ناضجًا، أنَّى تفرد كفيها يقع فيهما الثمر الأسود، تُطعم آدم وتأكل.

رأت أمامها طريقًا قيد السفلتة مليئًا بالحصى، ظنت أنه آمن أكثر من غيره، فتركت الزراعة وشقَّتهُ مُرجئة أي مخاوف جديدة.

أمام خص بوص منصوب على الطريق جلست تستريح، طلبت كوب شاي ثقيل من شيخ يقف خلف موقد، يرتدي جلابية متسخة، قصيرة من الخلف بشكل ملحوظ وتحف القش من الأمام، كان الماء يهدر أمامه في قِدر سوداء، فصب لها الشاي وقدَّمه بيد ترتعش، لمحت امرأة سمينة تجلس في الخص، مكبة في زاوية يداريها الظل بالداخل، تغطي رأسها بقماشة بيضاء، عندما تحرك فيها شيء ظهرت كأنها كلها أرداف وأثداء، وبانت تجاعيدها، قدَّرتْ ثومة أنها تخطت السبعين، فقلم الكوبيا يرسم حاجبيها وجلد كفها يشبه المشمع عندما يتعرض لسطح ساخن، لكن رغم ذلك يتوهج في عينها بقايا جمال قديم.

جلس الشيخ بجوار زوجته وصارا مثل حجرين في متحف، قال لثومة: «شكلك غريبة عن المكان».

فتأملته بعين ذابلة لم تذق طعم الراحة، ولم ترد.

«أعطتني الشيخوخة خبرة في معرفة الغريب من نظراته، تكون غالبًا تائهة ومذعورة، لكنه يُحاول إظهار عكس ذلك ، ودائمًا يبحث عن شيء لا يعرفه أحد».

لم تجد كلامًا ترد به.

«ابنك له وجه مستدير كالقمر».

هدهدتْ آدم فوق صدرها وردت:

«كل مَن يراه يقول إنه مثل فلقة القمر».

بَدلَّتْ وضع ابنها من جنب إلى الجنب الآخر.

حاولتْ أن تزيل عن ملامحها أي توتر، زمجرتْ سيارة عندما توقف محركها، نزل منها شاب يتبعه صبي، بدَّلا الأكواب الزجاجية الفارغة بأخرى معبأة بالشاي، ثم زمجرت السيارة مرة أخرى وهي تكمل طريقها فوق شريط الأسفلت.

لم يكن لدى صاحبتنا أي تصور عن جغرافية المكان، أو علاقة هذه البقعة بغيرها من بقاع الأرض، مع آخر رشفة دقتْ ثومة كعب الكوب الزجاجي فوق التراب وقامت، مدت يدها بالثمن وخرجت تبحث عن طريقها، شد الشيخ جسده بصعوبة من الجاذبية الأرضية ونادى عليها: «سأثقل عليكِ يا ابنتي، أريد منكِ فقط أن تُحركيها معي».

وأشار بإصبعه إلى زوجته البدينة.

أنزلتْ رضيعها عن ذراعها وحاولتْ نقل المرأة معه، كانت ثقيلة مثل صخرة، لكن ثومة رغم ذلك نجحتْ في المهمة، تصبب الشيخ عرقًا وكاد أن يقع مرتين، لم يستطع الوقوف طويلًا أمام الموقد ليغلي شيئًا في إناء معدني، فسألته ثومة: «هل يمكنني أن أساعدك في شيء آخر يا عم؟».

كان يُجهز سائلًا في أمبول شفاف، عندما اقتربتْ ثومة من الإناء رأتْ فيه حقنة، تسحَّب الرجل ورفع جلابية زوجته وهي جالسة: «يمكنكِ أن تمسكيها حتى أصب السائل في السرنجة».

ارتبكتْ ثومة بعض الشيء، فقد كانت تتابع ابنها الملقى على الأرض الترابية بطرف عينها، وفي الوقت نفسه تمسك بملابس المرأة المستسلمة لكل ما يُفعل بها.

لم تتوجع عندما انغرزت السن المعدنية في الجزء المكشوف من إليتها.

بعد أن أصبح كل شيء على ما يُرام همَّتْ ثومة برفع ابنها عن الأرض، ودار برأسها سؤال، سرعان ما طرحته على الشيخ: «ألا تريد أحدًا يعمل معك يا عم، يساعدك في غسيل الأكواب وشراء الطلبات؟».

التفت إليها الرجل كأنه يتأكد مرة أخرى من سماع ما قالتْ.

«لا بد أنك تحتاج لمن يساعدك في العمل بهذا الخُص».

شعرت ثومة بأن طلبها يمكن أن يُرفض، فالتفتت إلى السيارات المسرعة وسحبت طرف غطاء أبيض فوق رأس ابنها، حددتْ بعينها الطريق الذي ستسلكه، ما هي إلا خطوات قليلات حتى لحق بها الرجل قبل أن تبتعد، وصلها صوته خاشعًا من خشية الإجهاد: «هل اشتغلتِ من قبل؟».

هزَّت ثومة ابنها وقالت:

«كنتُ أصطاد بالحلّة».

«آه، تشتهر القرى هُنا بهذه الطريقة في الصيد، هل اشتغلتِ في أعمال أخرى؟».

نقلتْ آدم إلى الجانب الآخر من صدرها:

«وعيتُ فوجدتُ نفسي في خيمة سيرك».

«بهلوانة يعني؟».

ازداد هزها لابنها أكثر:

«لا، لقد كنتُ في الخيمة أساعدهم وأطعمهم، لكني لم أعمل معهم».

كانت عينا الشيخ بسبب بياضهما وثباتهما تشبهان عينَي شخص ضرير، تأملها وقال: «يمكن أن تعملي معي لكن بشرط».

توقفتْ عن التقدم للأمام:

«ألَّا تخونيني في يوم من الأيام».

فالتفتت وقالت:

«ولماذا أخونك يا عم؟».

«لأنني سأكون قد أمنتُ لكِ».

«ما اسمك يا حاج؟».

«سلمان».

أنزلتْ آدم مرة أخرى.

«لا تخف يا عم سلمان. اسمي ثومة، ولا أخون أبدًا. فقط قل لي ما هو العمل الذي سأقوم به؟».

بدا سؤالها كأنه نوع من الترفّع، أو إظهار عدم حاجتها الماسَّة للعمل.

شعرت براحة كبيرة لمجرد موافقة الرجل المبدئية، حتى ولو سيكون عملها في استراحة من الخوص والقش تخدم السائقين وصبيانهم، كانت قدماها تؤلمانها من طول المشي فوق الحصى، فبدت مُشتتة الذهن ذاهلة.

انحنى الحاج سلمان ووضع كفه فوق ناصيته كمظلة.

«لا شيء، غير أنكِ ستقفين أمام الكشك ليزورنا الزبائن، ولا تغلي القِدر على الفارغ، فمنذ أن مرضت زوجتي...».

نظر خلفه برهة خاطفة ثم أكمل:

«لم تعد تصلح لشيء، ولم تعد تعرفني، لا تفعل شيئًا طوال اليوم إلا الطعام والكلام عن أشياء عجيبة، كدت أجن يا ابنتي والله، تمنيت أن تموت لترتاح، لكن كما تعلمين، فالأمر ليس بيدي».

«وما اسم هذا المكان يا عم؟».

ابتسم الشيخ وقال:

«لا تبحثي عن أسماء لكل شيء ليمكنكِ العيش بسلام، هو مجرد خُص محطوط هنا منذ عشرات السنين، أخدعُ البلدية لأستطيع استكمال الحياة حتى يجيء الأجل، أقول لهم إنني هُنا معنيٌّ بصيانة الطريق، ثم ألملم بعض الحشائش حول الخُص كل صباح فقط ليقتنعوا بكلامي».

فرش الشيخُ صوفةً وتقرفص عليها. أسند ظهره إلى عروق الخشب المتداعية وحدَّق في الفراغ بأقصى ما يستطيع.

«أيام تنقضي والسلام».

كانت ثومة تنظر إلى شريط الأسفلت، تبحث بعينها وتسأله: «عن أي صيانة وأي طريق تتحدث يا شيخ؟».

فيكمل كلامه:

«لا تُجهدي نفسكِ دائمًا بالبحث عن الأسباب، فقد قلتُ لكِ إنني أخدعهم فقط لآكل عيشًا، وهم يتظاهرون بأنهم يصدقونني لأنني أمرر لهم ما فيه النصيب كل أول شهر، وأحيانًا يشربون الشاي مجانًا».

لم تفكر ثومة طويلًا فيما قال، فهي تحتاج إلى النقود، وأكثر من ذلك تحتاج إلى الاختباء لمدة طويلة، ولا يوجد أمان أكثر من البقاء في استراحة من القش بعيدة عن العَمار، ليس فيها إلا شيخ مُسن وزوجة لا يشعر أحد بوجودها، التفتت وقالت: «كم سأتقاضى أجرًا يا عم؟».

اقترب منها الحاج سلمان وابتسم ابتسامة مُجهَدة: «هذا ليس بيت صدقات، على قدر ما أكسب ستحصلين على نقود».

كانت منشغلة في قياس المسافة بين هذه البقعة وبيت زوجها البعيد، ثم قياس مسافة أخرى بينه وبين بيت لوزة.

«موافقة يا عم، ورزقي ورزقك على الله».

بانت بقايا أسنانه المتهشمة عندما تبسَّم.

في ليلتها الأولى تأملتْ ثومة السيدة السمينة، وعرفت أنها لا يمكنها القيام من مكانها بمفردها، غسلت لها رأسها في دلو صاج قديم، نشَّفتها من الماء وسرَّحتْ شعرها، كانت تفوح منها روائح عرق وبول وجبن قديم، وملابسها تحمل بين أنسجتها القش وغبار البن، ابتسمت المرأة أولًا بمد بوزها مثل سمكة، ثم تكومتْ بجوار حَجرها.

حصيرة الصيف الواسعة جعلت صاحبتنا تفترش الأرض الجافة خلف الخُص، أراحت جسدها المُنهك على قِطَع كرتونية وأجولة طحين فارغة، ضمت آدم إلى صدرها وراحت في النوم، كانت تستيقظ وهي تشهق شهقة جافة بعد أن تداهمها الكوابيس، فترى السحالي تقفز كقِطَع البرق بين القش، وبدأت الضفادع تنادي بعضها بعضًا بنقيق منتظم عندما أقبل الليل، بعد قليل توقفت الأصوات عن الجريان، ولم تدرِ ثومة إلا بأشعة الصبح الساخنة تلسع ظهرها، لمحت في البعيد الشيخ يملأ القدر من طلمبة، فأشعلت الموقد وانتظرته، أخذت عنه حِمله ووضعته فوق النار، ثم وجهت إليه سؤالًا شَغَلها منذ أن استيقظتْ: «ما هي المشروبات التي تبيعها يا عم؟».

فقال:

«شاي وقهوة».

فسألته دون أن تنظر إليه:

«فقط؟».

أضاف:

«وأحيانًا ينسون».

التفتت خلفها فرأته يعد فطورًا لزوجته، قطعة جبن وبيضة مسلوقة، أسقط يده في برطمان ليمون مخلل وأخرج منه ملء كفه، اقتربتْ ثومة منه وقالت: «هذا الطعام لا يوجد به تغذية كافية لزوجتك يا عم».

عبث الحاج سلمان في لحيته وابتسم:

«وهل أعد لها وليمة؟ يا ثومة نحن فقراء لا نكسب إلا ما يوفر لنا الخبز الحاف أحيانًا».

توجهتْ إلى طريق الغيطان وعادت بعد قليل، أعدَّتْ لها طبخة مسقعة بالبصل والتوابل، وضعت المكونات في طاجن فخار، ثم غطته بغلالة كوز ذرة ودسَّته في الرماد الناعم تحت الموقد، عندما أخرجته ملأت رائحته الفواحة الخُص، وأثناء تقديمها للمرأة اقترب سائق سيارة بيجو وفي يده كوب شاي

فارغ، عرفت ثومة من تكرار المشهد أن كل من يدخل بكوب فارغ يريد بديله ملآن، لكن السائق كان قد انجذب إلى رائحة الطاجن، فطلب منها أن يتذوقه.

«لقمة واحدة قبل الشاي يا ست».

أصبحت اللقمة رغيفًا ونصفًا، أكل كل ما فاض عن المرأة البدينة، ولحس ما تبقى في قعر الطاجن، ثم سأل سؤالًا بدا عفويًّا: «لماذا لا تعملون لنا هنا مسقعة نأكلها قبل الشاي؟!».

ثم ضحك ضحكة ساذجة وأخذ شايه وانصرف.

في المساء غسلتْ ثومة الطاجن ووضعت فيه أرزًا ولبنًا وأذابتْ فيه السكر، ثم غطته ودسته في الرماد الساخن مرة أخرى، ومثلما تبقى من طاجن المسقعة تبقى من طاجن الأرز باللبن، وجاء سائق آخر يحمل كوبًا فارغًا في يده، وأكل ما تبقى من طاجن الأرز، لكنه قال كلامًا مختلفًا: «يا عم سلمان، هذا الخُص يصلح لأن يكون مطعمًا.

انصرف السائق بشايه، لكن كلامه ظل طويلًا يتردد في الخص، لم تنم ثومة في تلك الليلة، ظلت تقلب كلام السائقين على جميع الأوجه.

«وما الذي سيحدث لو طبخنا بجوار المشاريب؟».

في الصباح فاتحت الحاج سلمان في المسألة، فقال لها: «طبيخ وطواجن يعني تجارة، وأنا لستُ صاحب سجل مانيفاتورة، إنه خص نحمد الله على أنه يصمد أمام الريح».

كانت تشرشب ورقة جرنال بمقص وتضعها كزينة تحت الأكواب.

«قُل لي، من هم زبائنك يا عم؟».

قال الشيخ وهو يشطف أكوابه بالماء من غبار الطريق: «السائقون وبعض عمال البناء الغرباء».

«ماذا لو قدمنا لهم بعض المأكولات الخفيفة مع الشاي؟».

«مأكولات!».

استيقظت المرأة السمينة من سباتها وجلست فوق حَجرها، ارتبك زوجها ووقع منه كوب: «موعد الوردية الدائمة، سأقدم لها الفطور ثم نعاود الكلام».

أخرج بعض الأطباق من تحت طاولة الموقد، قدمها لزوجته على صينية وأسندها فوق ركبتيها، اقتربت ثومة منهما ووجهت كلامها للحاج سلمان: «هذا

ما أردتُ قوله لك، لم تستطع زوجتك الصبر في طلب الطعام، فالإنسان يحتاج إلى الأكل أكثر مما يحتاج إلى الشاي والقهوة».

حك الشيخ ذقنه وأخذ يروح ويجيء في الخص الصغير: «أنا لا أملك من حطام الدنيا إلا خمسين جنيهًا، ادخرتها في بنك القرية، كنت أريد أن أتمها مائة لأعالج هذه المسكينة عند حكماء مصر».

«سنعيدها بعد أن يزدحم المطعم بالزبائن».

بعد تردد دام ليالي قال لها الشيخ:

«أريدك فقط أن تنتبهي يا ثومة، فيمكننا أن نعرف أين تبدأ سكَّة المصروفات، لكننا لا يمكننا أن نعرف أين ستنتهي».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٦

بعد أقل من شهرين صار الكشك الصغير مطعمًا، أزالت ثومة جانبًا من الخوص وضاعفت المساحة الممهدة. وضعتْ حوضًا لغسيل الأطباق، مزودًا ببرميل أرسته فوق سقيفة الخص، اشترت مضخة يدوية ترفع بها الماء من الطلمبة إلى البرميل، وأوصت نجارًا يصنع سلمًا خشبيًّا للتأكد من منسوب المياه المطلوبة التي ستكفي غسيل الأواني، جلَّد النجار الخص بألواح خشب متساوية ليُحسِّن منظره أمام الزبائن الجدد.

اختصت ثومة بصنع أطباق سريعة من المكرونة المخلوطة باللحم، وأطباق حلو متنوعة، ثم في النهاية تقدم للزبائن المشروبات، من أرباح الوجبات اشترتْ كراسي وطاولات صغيرة تكفي شخصين، على شاطئ الترعة القريبة وصَّبتْ قعدة لتقديم وجبات الخص الساخنة لأكثر من عشرين زبونًا في وقت واحد.

خلال شهرين فقط أُعيدت الجنيهات الخمسون إلى بنك القرية كما كانت، بدأت النقود تجري في يد الحاج سلمان، وثومة تضع ما يفيض من أجرها في كيس تعلقه دائمًا بحبل يتدلى من عنقها، قال لها وهي تلملم بواقي الأطباق بعد انتهاء اليوم:

«كنت أريد الذهاب إلى مصر، وأصبحتُ أحلم بالذهاب إلى الحجاز، نفسي أزور سيدنا النبي».

اقترحتْ عليه ثومة أن يدهن خشب الخُص بألوان فاقعة، لتلفت أنظار السائقين من بعيد، وعلقتْ فوق السقف دمية كرتونية كبيرة، تحركها الريح وكأنها ترحب بالزائرين.

عندما كان تقديم الأرز باللبن رائجًا في سلطانيات فكرتْ ثومة، لماذا لا تقدمه في أطباق كريستال مزخرفة برسوم فرعونية؟ طلبت من صاحب ورشة زجاج على الشاطئ الآخر للترعة تصنيع طلبها، كانت تقدمه باردًا بالقشدة ومزينًا بجوز الهند والزبيب وعين الجمل، فيشعر آكله أنه غداة ليلة سُكْر.

احتاجت التوسعات إلى ديب فزيزر وشعلة غاز متعددة العيون، كما عيَّن الشيخ حارسًا ليليًّا يراقب المطعم ويحميه من هجمات المنسر.

أصبحتْ صاحبتنا مسئولة عن كل شيء يرتبط بالحسابات، تتفق على صفقات الشراء من الغنامين وتختار بنفسها أنواع اللحوم، تدفع لتجار الأرز والسكر والمكرونة، تستلم قبل شروق الشمس أقساط اللبن الملآنة وتبدلها بفوارغ اليوم الفائت، تتمم على وزن أجولة الدقيق وأكياس التوابل.

اعتقد بعض السائقين أنها ابنة الحاج سلمان، وكان هو يغذي خيالهم بأنه يلاعب آدم ويحمله فوق كتفه أحيانًا، مع تعاقب الأيام استقر بعض الباعة الجوالين بعربة فيشار أمام الخص، ثم حطَّ جوَّال آخر بعربة ترمس، وآخر بقِدْر حمص، فأصبحتْ أضواء المطعم تظهر للسائقين من بعيد كالفنار.

مرتْ سنة، توسَّع المطعم خلالها ثلاث مرات، حتى قاربتْ طاولاته الالتحام مع حدود الترعة، أصبح المكان محطة أساسية يحج إليها السائقون من الطرق المجاورة، وبعض العائلات الريفية الميسورة كانت تفضل تناول الوجبات في الهواء الطلق، مما جعل ثومة تنوع في الأطعمة وأصناف اللحوم، وأصبح المطعم في حاجة إلى أيدٍ عاملة أكثر، فطلب الشيخ اثنين من الطهاة المهرة وصبيين، وأصبحتْ مهمة ثومة الأساسية مراقبة حركة الطلبات والدفع لتجار الخضراوات واللحوم ومراجعة حساب الزبائن عن كل وجبة.

وذات صباح كان العمل على أشده، فقد أضيف زبائن جدد، عمال ومهندسون يقومون بإنشاء جسر أسمنتي قريب، وفي عز اندماج ثومة أثناء تحضيرها للطلبات صرخت المرأة السمينة، ومنذ تلك الصرخة لم يعد نداؤها كله سوى صرخات، امتنعتْ عن الطعام والكلام، وأصبحتْ تتغوط في مكانها، فكلَّم زوجها أحد زبائنه من السائقين ليذهب بها إلى طبيب اختصاصي بالقاهرة، سيبيت ليلتين في لوكاندة رخيصة بشارع كلوت بك، قبل السفر عيَّن لثومة صبيًّا إضافيًّا ليساعدها بديلًا عنه.

في ليلة السفر نادى عليها الحاج سلمان، كانت تقف خلف حوض الغسيل، توجِّه الصبيان وترص أطباق الصيني فوق الأرفف، وضع يد على كتفها وأخرج بيده الأخرى لفافة من سيالة جلابيته الغويطة، شيئًا ثقيلًا في حجم الكف.

«ما هذا؟».

وزنه الشيخ أكثر من مرة قبل أن يقول:

«مُسدس، أولاد الحرام يندسون بين أولاد الحلال، المكان يكبر وستزيد الأطماع فيه، لا بد من حماية يا ثومة».

سحبت كتفها من تحت ذراعه وشالت آدم عن الأرض، ربتتْ ظهره لكن عينها كانت تتأمل يد الشيخ.

«نحن ضعفاء يا ثومة، وهذا هو أسرع طريق للدفاع عن المكان».

لمع المعدن الأسود في يده.

«ومن الذي سيطلق منه الرصاص يا عم سلمان؟».

رفع الشيخ ذراعه بالمسدس عاليًا، اتخذ وضعية الإطلاق لكنه لم يفعل، أنزل كفه حتى أصبحت في مستوى يد ثومة وقال:

«هو لن يُطلق نفسه بنفسه على أي حال، ساعة القضاء يقوى القلب، أنا أريد أن أُخبركِ عن مكانه، فالأمر لا يسلم أثناء غيابي».

رأته جيدًا وهو يضعه في مربع خلف برواز آية الكرسي المُذهب، ثم شالتْ معه زوجته بمساعدة السائق، وضعوها في السيارة كما يُنقل حجر من الجبل.

لم يكن الحاج سلمان يقدم لثومة مساعدة كبيرة في العمل، لكنها اكتشفتْ بعد سفره أن الأمان هو أهمّ مساعدة، حاولتْ أن تحكم قبضتها على العاملين كي لا يحدث أي خلل أو انفلات في إدارة المشروع الناشئ، وقد نجحتْ في ذلك إلى حد كبير.

في الصباح التالي كان الصبية يرتبون الطاولات ويرصون الكراسي، والطهاة يعدون مقادير الطبيخ والحلو، في هذا التوقيت الباكر يكون التجهيز للعمل أكثر من العمل نفسه.

كانت ثومة تداعب شعر آدم الأشعث الذي يشبه شعر أبيه، أشقر وهائش كغزل البنات، يتدلى جسده الصغير في حجرها بينما فمه متعلق بصدرها، سرحتْ وهي تستعيد جزءًا من ذكرياتها، فأحضرت طوق كاوتشوك وأوقفت ابنها خلفه، لكنه لم يستطع الصمود لثوانٍ، كانت قدماه تهتزان مثل خيوط، وركبته الصغيرة تشبه عقلة قصب، نطقه ضعيف مثل طير أخرس، فقط يتابع الصور التي تمر أمامه وهو جالس، لكنه لا يتفاعل معها، يمسح بإبهاميه ملامح أمه، فتركن الطوق وتسلم أمرها لله، لن تمشي ولن تتكلم ولن تسمعنى، يكفي أنك تراني يا آدم، وقبل أن تكمل مناجاتها اقترب منها الصبي الجديد الذي عيَّنه الحاج قبل سفره:

«زبون يسأل عنكِ يا ست ثومة».

قبل الظهر يكثر الطلب على المشروبات، وقرب العصر يكثر الطلب على الوجبات، لمحتْ رجلًا يجلس ويسند كوعيه فوق طاولة، يلتفت إلى الخص كل بضع ثوانٍ، كانت المسافة بينهما بعيدة، فخاب ظنها في التعرف عليه، قالت في نفسها:

«ماذا لو أن عبده زوج لوزة اكتشف مكانها؟ فهو يعمل سائقًا، وبسهولة يمكنه أن يصبح زبونًا».

أعطتْ آدم للصبي واقتربتْ من الضيف، تأملته جيدًا، هدأتْ أنفاسها المتلاحقة عندما وجدته أضخم من عبده وأصغر سنًّا، يرتدي عباءة سوداء ويلف عمامته بشريط من جلد الجمل، طلب طاجن لحم فرن وطبق مكرونة، بعد أن أكل

وطبل على بطنه طلب قهوة، انتظرتْ ثومة أن تعرف سبب استدعائها بالاسم، وقفتْ خلف الرجل صامتة، ثم ذهبت لتحضر القهوة، وأثناء وضعها الفنجان فوق الطاولة سمعت اسمها بصيغة نداء.

«ثومة».

كانت الطاولات كلها خالية ولا يجلس شخص غيره، دوى اسمها وَرَدَّتْ على ندائه بسؤال:

«هل تعرفني؟».

رشف الغريب من فنجانه ورطَّب شفتيه بلسانه، أشعل سيجارة ثم قال:

«لقد أكلت ولن أدفع، وسوف أشرب، ولن أدفع أيضًا».

كان واثقًا من نفسه أثناء الحديث، فتحسستْ كل حرف قبل أن تنطق به، أعادت سؤالها مرة أخرى:

«هل تعرفني يا عم؟».

سحب الرجل نفسًا طويلًا من السيجارة، أخرجه على هيئة شلال أبيض أمام وجهها، عندما انكشفتْ ملامحه لمحتْ على وجهه شبح ابتسامة، وقال:

«أنا جار عبده، بيتي في مواجهة بيته، ورأيتك وأنتِ تضربينه بالحجر فوق رأسه، ورأتك زوجتي أيضًا ويمكن أن تشهد».

تظاهرتْ بأنها تمسح الطاولة بخرقة في يدها تبدلت ملامحها كأنها تذكَّرت فجأة خطرًا يطاردها، حاولتْ أن تبدو متماسكة وهي تخاطبه: «حسابك خمسة عشر قرشًا، ادفعها أولًا ثم قل بصراحة ماذا تريد دون لف أو دوران؟».

وقف الرجل أمامها فظهر بنيانه المتين، أطاح بعقب سيجارته بطريقة مسرحية، تأملها جيدًا ثم قال:

«أريد أن أشاركِ في هذا المطعم الأبهة، لا أكثر ولا أقل، لن أعترف بشيء ويا دار ما دخلك شر، لا تحملي همّ العجوزين، سيموتان من أي خضة ليلية وينتهي أمرهما».

صمتت ثومة طويلًا ثم قالت بصوت مرتعش:

«ولماذا سكتَّ طوال هذه المدة؟».

فرد بطبقة صوت عريضة وواثقة:

«مرت سنة وأنا أبحث عنكِ، كل يوم أبحث، أراقبك منذ تركتِ القرية، ولم أكن أعرف أن شطارتك ستصل إلى هذا الحد، هل تريدين الصراحة؟ لقد كنت أبحث عنكِ لأفوز بقرشين، أما بعد أن رأيتُ كل هذا العز، اختلفت الحسبة في رأسي، فأنا دائمًا أشتهي ما ليس لي، هل ترين هذا؟».

وأخذ يطبل فوق كرشه بكفه السمينة:

«لا يشبع إلا من أكل الحرام».

أعطته ثومة ظهرها، كانت تحمل الفنجان الفارغ وتراقب آدم الذي ينظر إليها ولا يستطيع الزحف باتجاهها، لم يخرج من فمها أي كلام، توجهتْ إلى آية الكرسي، رفعتها وأخرجت منها اللفافة، أخذت تُقلب في مسدس الحاج سلمان ذات اليمين وذات الشمال، لا تعرف كيف يعمل بالضبط، وهل هو مُلقَّم بالرصاص أم يحتاج لمن يُعبئه؟ بعد تفكير طويل وأخذ ورد مع نفسها وضعته في سيالة جلابيتها، عادتْ إلى الرجل وقد امتلأتْ بقوة إضافية، ارتعشتْ يدها وهي تحاول دسَّها في سيالتها، اختفت الفتحة أو تنكرت لأصابعها فلم تستطع الوصول للفافة، شدَّتْ صدرها أمام الغريب وقالت كأنها تلقي بحمولة ثقيلة:

«أعلى ما في خيلك اركبه يا عم».

أعطته ظهرها وعادت إلى موقد الطهي، كأنها فعلتْ ما عليها وزيادة، لكنها تجمدت عندما سمعت صوت الرجل نفسه يلفحها من الخلف.

«ثومة، عاوز أقول لك حاجه مهمة، عبده مات».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧

مشت صاحبتنا بخطى ثابتة كأنها ستعود لتكمل الكلام مع الزبون، لكنها لم تعد، عصرت مخها وهي تتذكر أي شيء خاص بذلك الغريب، تأكدتْ جيدًا أنها لم تره من قبل، شردتْ بعيدًا ولم تعد تسمع أصوات حركة الصِّبْية ولا ضجيج الأواني، فكرتْ بعد أن استردت عقلها من سرحان طويل.

«ماذا يمكنني أن أفعل مع هذا الثور؟».

تركته جالسًا فوق المنضدة يشعل بوز سيجارة من عقب أخرى، حملت ابنها مع الأطباق ودخلت إلى الخص، طلبت من الصِّبيان ألا يغلقوا الماء فوق الصحون والمقالي، ألقت بكل ما يحتاج إلى غسيل وفتحت الماء، جلبة الأواني أعطتها الأمان، أصبحتْ غطاءً لها، في تلك اللحظة فكرت بالهرب.

لمحت الصِّبيان يرشُّون المياه وينظفون بقايا الطعام، والطاهي يقف خلف موقده بشكل طبيعي، بحثت حولها عن الزبون الغريب الذي يرتدي عباءة سوداء، فرأته لا يزال جالسًا يلتفت بين فينة وأخرى وهو واثق من أنه أصاب هدفه بدقة، مسحت الطاولات بعينها، لاحظتْ أن الزبائن بدءوا في التوافد، تظاهرتْ بأنها تكلم أحدهم، لكن أسئلة كثيرة كانت تدور في رأسها، انتهت كلها بوجوب مغادرتها المكان خلال دقائق.

علَّقتْ بقجة صغيرة في يدها وابتعدت خطوتين عن المطعم، لم تفعل سوى أنها عبرت الطريق بآدم، ثم باتت ليلتها خلف كشك مرور مهجور، كبَّلها الخوف عن فعل أي شيء أو اتخاذ أي قرار، كل ما كانت أكيدة منه أنها خائفة، فطمأنت نفسها بخواطر لم تغادر حلقها.

«لا أحد يمكنه تخمين أنني قريبة إلى هذا الحد».

بحث عنها الغريب في الحقول، مشَّط الطريق الأسفلتي وشاطئ الترعة من الجانبين، وأخيرًا، ربض حتى الصباح بين كشك المرور المهجور والخُص الذي صار مطعمًا.

لا فائدة من أن تُخبرنا صاحبتنا بالكثير عما حدث لها في ذلك المساء، ممرات وممرات من الزرع أخْفتْ عن أنظارها المساكن والبيوت، فلم تعد ترى من الدنيا إلا السماء والأشجار وحشرات الأرض.

باتت ليلتين كأنها في حلم، تتمدد فوق الطين الندي وهي تأخذ آدم في حضنها، تصنع وسادتها من الأعشاب الجافة وكتل العشب، تأكل كل ما تعثر عليه من محاصيل الموسم، وتشرب من قنواتٍ ماؤها راكد ومختلط بالطين.

في فجر اليوم الثالث توغلتْ أكثر في ممرات الزراعة الطويلة التي لا تنتهي، يتقدمها غصن شجرة تهش به الهواء، تتخيل أمامها رجفة الطبول البعيدة، وتسمع اصطكاك طاسين كبيرين، كان الصوت جذابًا، سحريًّا ووحشيًّا.

«والآن أيها السادة، حان وقت سيتغير فيه كل شيء، الحياة التي كنتم ترونها سهلة مثل شرب العصير، سيثبت لكم ساحرنا أنها صعبة مثل شربة زيت الخروع، فما سترونه الآن هو جزء صغير من التفاصيل، لكنه يعبر عن الحياة كلها...».

لم تجد ثومة بُدًّا غير الركض في اتجاه عرضي لا علاقة له بطريق السيارات، لم يكن لديها أمل في الخروج، غاصت داخل الزراعات التي سرعان ما أخْفتها عن الأنظار، حملت ابنها كأي أم ريفية تتجول بين الحقول لتلقيط رزقها، مشت ساعات وساعات، ابتعدت عن حدود القرية، لم تعد تشعر بقدميها، كأنها أصبحت تسير منفصلة عنها، تبدَّل الولد بين ذراعيها أكثر من مرة، كل بضع دقائق تضع عنها أغراضها لتستريح، ثم تنهض لتكمل الطريق، عبرت من القرية إلى القرية التي تليها، كانت تقص الطريق عدْوًا كقفزات حيوان بري عفي.

جلستْ تحت نخلة، حاولت إغماض جفنيها فلم تستطع، تساقط عليها بعض الرطب، قشَّرت واحدة وقرَّبتها من فم آدم، مصَّها بين شفتيه دون أن يفتح فكَّه، عندما ألقمته ثديها السخي نَعَسَ، أكلتْ ما تيسَّر حتى جزعتْ وعافتْ حلاوة الرطب المسكِّر، بحثتْ حولها عن أي مصدر للماء فلم تجد.

بعد مسيرة نصف نهار ظَهَرَ أمامها نهرًا، عندما اقتربتْ رأت مراكبيًّا يرتق شيئًا في شبكة صيد، لوّحتْ له فاقترب من الشاطئ، أمسك بيدها حتى أمكنها الانتقال من اليابسة الثابتة إلى سطح مركبه الذي يتأرجح في الماء، ملأتْ كفها من النهر الجاري، سقت ابنها وشربت حتى تبدد جفاف حلقها.

ابنة المراكبي الصغيرة تقرفص وتحرق بخورًا في كفة ميزان، كانت ترمي آدم بنظرات بريئة بين الحين والآخر، فجذبت ثومة طرف الشال الأبيض وغطت ابنها كليًّا، ثم طلبت من المراكبي أن يصل بها إلى أبعد نقطة ممكنة، ودَعتْ له أن يرزقه رب العباد، فرمى الرجل شبكته بطول ذراعه في النهر وقال:

«أنا على باب الله يا ست، يمكن أن أجد رزقي بعد مترين، كما يمكن أن أعبر بلدين ولا أعثر على سمكة واحدة».

شق المركب الصغير عرض الترعة، ورمى الرجل شبكته للمرة الثانية، لم ترها ثومة عندما أسقطها في الماء للمرة الثالثة، تقرفصت عند ركن صغير مخصص لتخزين الأسماك وراحت في سرحان يشبه النوم، تشاجر في عينها

القلق والنعاس، كل من عرفتهم في رحلتها السابقة تحولوا إلى هُلام، وكأن الأحداث التي مرت بها خرجتْ من كمها، مثلما كان الأرنب الأبيض الصغير ينط من عب زوج أمها.

لم تفتح عينيها إلا عندما لطمتها سمكة طائرة في خدها، استيقظت وهي تقبض على آدم بين ذراعيها، فرأت السمك يتسرب وينزلق إلى الركن الصغير، كأنه يعرف طريقه المحتوم، كان المراكبي يفض اشتباك سمكات عالقة في ثقوب الشبكة، عندما رأى ثومة مستيقظة ابتسم فظهر نابان فقط في فمه.

«الخير يملأ المركب ويفيض».

وقعت من يده ثلاث سمكات صغيرات في كفة الميزان المشتعلة بالبخور، وفاحت رائحة شواء.

غيَّبها النوم فلم تعرف إلى أين وصلتْ، ولا في أي منطقة هي، نظرت إلى اليابسة فرأت أرضًا زراعية شاسعة لا تحدها بيوت، من خلفها يربض جبل شامخ أسِنَّته البُنية تلتصق بالسحاب، طلبت من المراكبي أن يتوقف بها هُنا، مدت يدها بأجرة التوصيل فردَّها الرجل، انكشفت اللفافة عن آدم فرآه الصيَّاد كاملًا، وقال:

«الخير بقدومك يا ست، هذا العيل خديج، وسيكون رزقه وفيرًا بإذن الله».

ارتعش المركب عندما اقترب من الشاطئ، مد المراكبي يده وساعدها في النزول، فور وصولها إلى اليابسة الثابتة شعرت بدوار، كادت تقع لولا قعادها، لوحت لها الطفلة التي تركتْ كفة البخور وأخذت تعبث في شعرها بمشط.

ابتعد المركب وأخذ معه ذكريات وامضة بلا عدد.

اتجهتْ صوب الجبل، رأتْ دوامات مثل نخالة طحين تطير وتمنع رؤية السماء، هامات نخل تظهر في البعيد، وغير ذلك فكل شيء تغطيه سحابة من غبارٍ أبيض، تعاود الهبوط فتردم الأرض، اندماج الرمل مع الرماد يرسم خطوطًا تشبه مزارع قمح تلعب بها الريح، عندما اقتربتِ اختفت قامتُها في الزروع التي بدت من بعيد بطُول العشب، شقت غيطان الزراعة وابتعدت بابنها عن العَمار والأنظار، لم يكن الجبل قريبًا كما تصورتْ، عندما اقتربت منه لم تجده جبلًا، بل قمم حجرية تحجب الأشجار العالية رءوسها، سارت في وادٍ صغير غير ذي زرع قرابة نصف ميل، شعرت بأنها تمشي منذ بدء الزمان، تمزقت أجزاء في ملابسها عند الكتف والكمين، كأنها عبرتْ أسلاكًا شائكة، هل هذه هي الحياة التي يتقاتل الناس من أجل الفوز بعيشها؟ قالت صاحبتنا لنفسها بعد أن وقفت فوق تل طمي جاف، تعثرت قدماها فوقعت على بوزها

وانزلقت هابطة في منحدر، حفرة غيَّبتها عن سطح الأرض، تحسست خدوش وجهها، وهي تقول في نفسها: «أي ورطة وضعتِ نفسكِ فيها بهروبك يا ثومة؟!»، انتفخ الخوف في رأسها كضفدع، كل ما رأته في تلك اللحظة صنعه الضباب، وجدت نفسها في حفرة كبيرة يمكن أن يقف فيها إنسان بالغ فلا يظهر منه شيء، مساحتها في حجم غرفة صغيرة، جوفها جامد ومحروق، وحوافها طرية على نحو مخادع.

عندما تفقدت المكان حولها رأت أقحاف نخل تفرش الحفرة، ولمحت بالقرب منها إسطبلًا ومعلفًا مهجورين، وحوضًا أسمنتيًّا تشقه طلمبة صدئة لم تمسسها مياه منذ زمن، وفي البعيد مجرى مائي صغير يحصنه صف بوص طويل من الجانبين.

الحفرة التي وقعتْ فيها تقع عند زاوية بين صخرتين، مفروشة بالقش وريش الطيور وعظمة غير معروف لأي كائن تنتمي، خارج الحفرة كثبان رملية صغيرة يكسوها رماد أسود، كأنها كانت مجلوبة لبناء قديم لم يكتمل، بداخلها قشرة سميكة متيبسة من مخلوط أسمنت متهشم في مكانه.

توغلتْ ثومة بأغراضها داخل الحفرة، تفقدت المكان سريعًا بعينين مرهقتين، نظرتْ إلى ما جلبتْه من حطام الحياة، بقجة مملوءة ببعض الأغراض وقطعة لحم تنبض بالحياة، وشذرات عابرة من ذكريات متفرقة يلتقي الأحياءُ فيها بالأموات.

«النوم يشفي من التعب».

قالت لنفسها.

«لا نكون خلاله موجودين؛ لذلك فكأننا نُولد من جديد».

قالت ثم شعرت بالخدر.

وخز متقطع ضرب أنحاء جسدها، أفرغتْ حذاءها من القش والحصى وهي تعرج من شدة الألم، فلا تتبيَّن أي قدم متعبة وأيهما تشيل الحمل وحدها، كانت رغبتها في الاستلقاء على ظهرها تفوق كل تمنٍّ، نعست من الإجهاد فرأت في حلمها وجوهًا شنيعة تلف حولها بلا أجساد، ثم بزغ وجه أمها الجميل، مدَّت يدها وهي تُقدم إليها طوق الكاوتشوك، وتمشي معها بجوار الكارو الذي تسحبه البغال الثلاثة.

عندما استيقظتْ كانت الشمس قد غربتْ، وبدأت ريح تصفر، اتخذتْ قبل الغفوة قرارًا بأنها ستستريح قليلًا، ثم تعبر الحفرة وتستأجر غرفة في أي بيت قريب خلف الجبل، لكنها بعد أن استيقظت لاحظت أن أحدًا لم يمر، لم ينتبه

إليها مخلوق أو يكتشف أمرها، فبدلت قرارها بقرار جديد، لن تغادر هذا المكان المعزول ما دام لم يرها أحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨

عندما عضَّها الجوعُ في يومها الأول فكرت في الحصول على وجبة، فكتْ عقدة البقجة وأخرجت أغراضها الشحيحة، نثرتها حولها وشعرت برغبة طاغية في النعاس، كأنها تريد الاختباء لمدة طويلة عن كل ما في العالم المرئي، أغمضت عينها وآدم راقد في حجرها، فاستيقظت برفقة بعض خيالات النوم، سمعتْ ثغاء غنم وخبب خيول، صاحبتْها كوكبة من شخصيات مرَّتْ عليها مثل عربات قطار مُسرعة، رفعت رأسها عن الحفرة فلمحت أشخاصًا بلا عدد يحملون المشاعل ويقتربون منها، لكنهم قبل أن يصلوا إليها انعطفوا وأكملوا المسير باتجاه آخر، عندما ابتعدوا عنها بمسافة آمنة خرجت من الحفرة، فرأت الرجال في مقدمة الموكب يحملون صندوقًا خشبيًّا فوق أكتافهم، توقفت المشاعل عند تلَّة ترابية، فأنزل الرجال الصندوق عن مناكبهم.

لم تكن تعرف بأنها قريبة جدًّا من طريق الجبَّانات، فقررت الارتحال عن الحفرة عندما يغطيها الظلام.

في اليوم التالي أيقظتها سقسقة العصافير وضوء النهار، بدأ الجوع يقرصها ويطيّر النوم من عينها، تركت البقجة بعد أن غطتها ببعض العشب الجاف، حملت آدم وتجولت تبحث عن شيء يؤكل، لم تجد غير أشجار قصيرة مُتربة بطول الطريق الترابي، كانت الجبَّانات مُحاطة بسور منخفض، مشروخ ومتصدع من جميع الجهات، خلفه بوابات صغيرة خضراء، إحداها مفتوحة، فلمحتْ في أحواض الزرع بقايا كعك وقشور فاكهة، جمعتها في كيس، وأثناء رجوعها توقفت أمام باب خشبي صغير، كأنه مخلوع من بيت للأقزام، حملته مع أغراضها وعبأت كل ما قابلها من روث بغرض تجفيفه واستخدامه كوقود.

في طريق جانبي لمحت أعشابًا جافة متكومة تحيط بحقل بصل، شدت شواشي بصلتين وأكملت المسير، جلست في الحفرة تفكر فيما يجب عمله غدًا، أو بعد غد، نسيت قرار مغادرة الحفرة عندما لم تجد إجابة، سال أنفها وأفرزت كل الدمع الممكن بعد أكل البصل حافًا، كان أثره جيدًا على در الحليب للولد، فالرأس الكبير لم يطمع في أكثر مما يستحق الجسد الصغير.

بدأت تفسر ملامح آدم في نفسها، تتأمله وقت الرضاعة، تملس فوق رأسه وهي تشعر بامتصاص الفم لحلمة ثديها.

لمحت غرابًا يقف فوق شجرة وبصحبته أفراخه الصغار، ففكرتْ في صنع خيال مآتة ووضعه بجوار ابنها كحارس شخصي دائم.

«عندما تغيب كل السبل فلا بد من عمل الذراعين، في الظروف الصعبة تفرض القوة البدنية نفسها». سرحت أثناء الرضاعة وأكملتْ.

«لم يبق من الطعام المجاني إلا رزق الماء».

عقدت الجلابية التي كانت تستخدمها كبقجة ثم ثقبتها بسكين في أماكن متفرقة، جعلتها مثل مصفاة وعلقتها في عود خوص طويل، حملت آدم واتجهت نحو المجرى المائي القريب، ترعة بجوارها جسر لم يكتمل بناؤه، وبعض فلوق نخل غاطسة في طين الشاطئ.

تذكرت خبرتها في الصيد برفقه لوزة، وتذكرت أيضًا أنها قتلتْ زوجها.

وقفت فوق حجر ورمت الجلابية، تسربت المياه من الثقوب التي كانت أكبر مما يجب، وكذلك أيضًا تسرب السمك الصغير، في قعر الجلابية تبقت سمكة واحدة فشلت في الخروج من الثقوب بسبب كِبر حجمها، فكان فشلها نجاحًا لثومة.

لفتها جيدًا وأحكمت قبضتها، كانت السمكة تنتفض طوال الطريق، أخرجتها من القماشة وهي لا تعرف ماذا يمكنها أن تفعل بها، فحجمها أكبر مما تخيلت، نيمتها على الأرض وأحكمت قبضتها، رفعت حجرًا وكادت تدق رأسها، لكنها تراجعت عن ذلك القرار بسرعة، فجمعت بعض القش والخشب وأشعلته، ألقت السمكة بطريقة عصبية فوق النار، لم تلتفت إليها وهي تتلوى فوق اللهب، عندما فاحت رائحتها مدت يدها بعصا رفيعة وجذبتها من فمها المفغور.

لمحتْ في البعيد مقطفًا جلديًّا مقلوبًا على بوزه، وتعثَّرتْ في خوذة جندي، جزء كبير من المقطف كان مدفونًا في الأرض، حملته وأفرغته من الأتربة الملتصقة بقعره، خصصته لكل ما ستجلبه من طعام، شالت الخوذة ونزعت عنها بطانتها القماشية المغبرة، ثم نظفتها بالماء والتراب وقررت استخدامها كإناء للطهي، وبدأت تسأل نفسها، هل ما ستأخذه من الحقول البعيدة إلى حُفرتها يُعد حرامًا؟ بعد قليل توقف مخها عن طرح الأسئلة وبدأ ساعدها يتهيأ للعمل، قبل غروب اليوم الأول كان المقطف متخمًا بخيرات متنوعة كالمستودع: جزر وبطاطس وذرة جافة وثمرتي باذنجان وبقايا سمكة.

راقبت الشمس بصمت وهي تختفي خلف جسر البوص، عندما حل الظلام رأت مصابيح فوق بيوت بعيدة مُضاءة كالشموع، رقدت على جنبها فوق الطمي الندي، ضمت آدم إلى صدرها عندما شعرت بلسعة برد خفيفة، ثم لم تر بعد ذلك سوى بعض لقطات مشوشة من طفولتها.

كانت عينها لا تزال مغمضة، عَبَرَ ضوء متوهج كحبات الفراولة جفنيها المغلقين، استيقظت فلم تجد آدم في حضنها، خلال برهة انتصبت مثل خشبة، حكّت القماشة التي تغطي رأسها بعد أن لمحته.

«كيف زحف مسافة خطوتين؟ فهو لا يجيد استخدام يديه ولا قدميه».

سألت نفسها وهي تنحني فوقه وترفعه إلى مستوى رأسها، داعبتْ شعره ولاحظت أنه بلون قشرة الأرز، لاعبته وأجلسته فوق محتويات المقطف، تقرفصت بجواره وهي تتأمل المكان الذي حطت فيه رحالها ليلة أمس، فلمحت تلًّا من الطمي الطري، ظلت تعجنه على شكل كور وتلقي به لآدم، عندما لم يبادلها اللعب دحرجت الطمي كالعجلات من أعلى الحفرة، تسلي نفسها بمتابعته في صمت وهو ينزلق إلى قعرها.

التصاق الكور الصغيرة بجوار بعضها البعض جعلها تفكر، لماذا لا تصنع سقيفة لهذه الحفرة؟ فتصبح ساترًا يحميهما من أي خطر خارجي، تطورت الفكرة في رأسها إلى زراعة ما حولها بنقل تقاوي الحبوب والأشجار من الحقول الأخرى.

كانت تخرج بعد أن تُظلم الدنيا لتجمع بعض الخوص، تختار العود الأقرب إلى الجفاف، تتعافى عليه وتخلعه بجذوره، بعد أيام صنعت أكثر من حصيرة بربط الأعواد بالقش، عندما تكومت الحُصر فوق السقيفة عجنت الطمي وخلطته بالعشب الجاف والقش، كانت «العجنة» ينقصها شيء ما لا تعرفه، تبن مثلًا، ربما، لم تفكر طويلًا وألقت بالطين طريًّا فوق الحُصر، مسحت عليه من جميع الجهات حتى فرش سقيفة الحفرة بالكامل.

نامت على جنبها وظلت تتأمل صنيعها.

«خلال أسبوعين فقط أصبحت أحتمي مع آدم في مكان آمِن، وأنا التي فشلت طوال عمري أن أبني مع الناس عشًّا».

عادت إلى حواراتها من طرف واحد وهي تخطط للخطوة القادمة.

كانت الحفرة تظهر من بعيد كمقب طيني ليس إلا، فبعد أن كومتْ ثومة الطمي فوقها تشابهتْ كثيرًا مع الأرض، فنثرتْ حولها كل ما صادفها من بذور، حبوب ذرة أو قمح أو سَيْسَبان، ثم غرستْ فرع جوافة.

لم تنسَ ترك فوهة تنزلق منها إلى الحفرة، تمامًا كما تنزلق الفئران إلى جحورها.

خلال أشهر قليلة كانت تجلس تحت الأغصان الصغيرة، تراقب سحابة تلقي بظلها على باب الحفرة، وآدم يلعب ويلوث ملابسه بفضلات الطيور.

استغرق الأمر سنة حتى تستجمع قِطع الحكايات من ذاكرتها، لكنها لا تجد من تحكيها له، فآدم لا يمكنه الكلام، كانت تنسج قصصًا من خيالها ليس لها وجود، تساعدها على مرور الوقت دون وقوع أحداث، عندما تملّ تنظر إلى السماء وتوجه رسائلها، فتُهديها النجوم فكرة جديدة كل ليلة.

بدأ الجزء المرتبط بالكلام في مخها يلفظ أنفاسه، لم تعد تطلق سوى أصوات غير مفهومة كتلك التي تصدر عن الضفادع والطيور وفرس النهر، يومًا بعد يوم أصبحت ذكرياتها مشوشة ومهلهلة، مجموعة مواقف لم يبق منها إلا أسماء أصحابها، ولم يعد أي شيء جدير بالتذكر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩

اعتادت المكان كأنها وُلدت فيه، لم يعد يزعجها هدير الأقدام في مواكب الدفن، ولم يعد يخيفها إلا وجود أوكار للذئاب خلف الجبل البعيد.

تنازلت الكلمات عن لسانها ببطء، واحترق ماضيها في رأسها مثل خيط.

كل ليلة تغمض فيها عينها تخشى من عدم فتحها ثانية، أو بالأحرى تسأل نفسها «ماذا سيفعل آدم لو حدث لي مكروه؟». لم يكن يعنيه من الكرة الأرضية الشاسعة سوى بضعة أشبار يتحرك فيها زاحفًا على مقعدته، وثومة لم يكن يعنيها من الحياة أن تُحرز أي انتصار واضح، لكن فقط أن تحظى بهزيمة مقبولة يمكن تحمُّلها، لقد أخذتْ حياتها تشبه مسرحًا صغيرًا في قصر مهجور، استغنى عنه صاحبه ولم يعد يرعاه، فأصبح من حق أي شخص أن يعتلي المسرح ويقدم فقرته كما يراها، ثم يتحدث بيقين عن أنه يعرف صاحب القصر حق المعرفة.

مع مرور الوقت اعتادت أن يصبغ الغروب المكان ويحلّ الليل، فتنهمك في شيل وحط حتى يهدها التعب وتنام، وعندما يلمع في الأفق قوس من صفار الشمس يتنفس الصبح، فتستيقظ لتكمل ما كان يشغلها أثناء الليل.

في بعض الليالي تحلم ثومة بأنها تطير، تتجول بين ألوان تشكل قوس قزح، لكنها عندما تستيقظ لا تجد بجوارها إلا آدم، طفل شارد دائمًا ولا يملك سوى ذراعين هزيلتين، في سُمك عود قصب ورخاوة حبل.

كانت الترعة بعيدة إلى حد ما، وآدم يزيد حجمه ويصعب حمله، هدَّها التعب من ملء الماء مرتين في اليوم، فبدأت تحفر رأسيًّا في الأرض كل يوم نصف متر، تخيلت أنها يمكنها بسهولة حفر بئر، باءت تلك المحاولة بالفشل، وعندما أرادت تشغيل الطلمبة القديمة أفسدتها أكثر، فبدأت تفكر في بدائل، بعد أن تمدد اللون الأخضر حول الحفرة لم تعد المياه تكفي، فجلبتْ من طريق الجبَّانات صفيحتين، وحزام كفن جلدي ربطته فوق صدرها كالصليب، فَتَلَتْ حبلًا وعلقته فيه، عقدت كل طرف منه في صفيحة، ثم وضعت خشبة متينة فوق كتفيها، يمينها تتدلى صفيحة محملة بالماء، وشمالها يتقنفذ ابنها في الصفيحة الأخرى.

جمعت شواشي البوص المتناثر حولها وصنعت منه عريشة صغيرة خارج الحفرة، ثم ربطت ما فاض بالقش في ضفائر فصار مرجيحة لآدم، عندما اختبرتها اكتشفت بأنها أمتن من اللازم، فدقتْ عرقين خشب في الأرض ومكَّنتهما جيدًا، ثم علَّقتْ طرفي حبل المرجيحة، وأصبحت تنام عليها وآدم

راقد فوق بطنها، تتأمل النجوم وتتحدث إليها كل ليلة، حتى ولو لم تهدها إلى شيء جديد.

عندما أتم آدم ثلاث سنوات بدأ يقلد ما يسمعه من أصوات الطيور، لكنها غير مقسمة إلى حروف وكلمات، ورغم تلقين أمه له بأسماء وجُمل فإنه ظل كما هو، يصدر صوتًا كما تفعل قطة أو بطة، مجرد مقام صوتي لا يستطيع التعبير عن شيء.

لحظتْ أن لسان آدم قصير وصغير الحجم، كعقلة إصبع، وعندما تلقمه الطعام كان يمضغه على أسنانه الأمامية مثل سمكة.

تعلمت كيف تدرب لسانها باختراع الحكايات لطفلها، أو بالأحرى، لنفسها، تقص عليه قصصًا لا تستطيع التأكد إذا كانت نسجتْ تفاصيلها من ذكرياتها أم من مخاوفها.

بدأتْ تستهلك الوقت في تبديل أماكن الأشياء داخل حفرتها، ثم بعد يوم أو يومين تعيدها مرة أخرى سيرتها الأولى.

أصبح لديها وقت كافٍ لعمل كل شيء، تكنس القش المتكوم حول الحفرة بالمقطف وتطيره بعيدًا، أو تدلي آدم في الترعة الصغيرة وتؤرجح قدميه في الماء، تغسل رأسه بليفة من العشب أو تبحث له عن زهرة تعلقها في عنقه، تنظف جسدها بفرك الرماد عليه وحكّه بكتل القش.

أثناء الليل تسمع صوتًا يشبه قرع طاسين كبيرين مثل صفائح ترن من بعيد.

لم تعد تولي ذلك الصوت المتكرر أي اهتمام.

كانت تستفيد من كل شيء حولها، بكوز ذرة واحد أمكنها زراعة محيط غرفتها الجديدة، تغرس البذور وتراقب البراعم أثناء نموها، أصبح لديها خبرة بالمحاصيل وعلاقتها بالمناخ وفصول السنة، تستغفر ربنا بعد أن تجلب الحَب من الحقول البعيدة دون دفع ثمنه، لكنها بعد مدة لم يعد مطلوب منها حمل أي محاصيل، فقط البذور التي ستصبح محاصيل فيما بعد.

أصبحتْ ثومة تنتظر ثروتها الحقيقية من أحشاء الأرض لا من البشر، حياتها تمضي من تلقاء نفسها، الأرض تُنبت البذور وتعلق فوق صدورها الثمار، والسحب لا تحتاج لشخص يدفعها حتى تمطر، والطيور تحط فوق الأغصان بعد أن تستهلك حصتها من الطيران، كان الزمن ينساب فلا تشعر به عندما يبطؤ إيقاعه، وكذلك لا تؤذيها سرعة مروره، اليوم جزء من السنة والعمر دورة محتومة، لم تعد في حاجة إطلاقًا للاحتفاظ بالنقود أو معرفة الوقت أو إجراء عمليات حسابية لأي شيء.

كان من الصعب أن تحدد ساعات معينة للنوم وأخرى للصحيان، فالوقت دائمًا ملكهما، هي وآدم ومن بعدهما يبدأ الحساب لأي شيء آخر، يمكن أن يناما يومًا بأكمله، يستيقظ طفلها ثم يذهب بسهولة مرة أخرى إلى عالم الغياهب اللذيذ، كانت تفعل فقط ما يمتعها ويُطمئنه، تستيقظ أحيانًا عندما تشعر بتنميل في رأسها وخدر في بدنها، فتعود للنوم وتسرح في أشكال مُختلفة للحياة، ويصبح يومها كله كحلم متقطع.

استجابت حواسها لمحفزات جديدة، مواهب إضافية لم تتخيل أنها موجودة لديها، فبدأت تفرق بين أنواع الزرع عن طريق المادة البيضاء التي تسيل بعد قطع سيقانه، تنتشر الرائحة فتميزها عندما تعيد زراعتها، وسَّعتْ حدود اللون الأخضر حول الحفرة فتضاعفت مساحتها، صنعت الوسائد من الحشائش وتعلمت كيف تستبعد الجذور المتعفنة، أصبحت تعرف اتجاهات الريح أو تتوقع بأنها ستمطر.

بمرور الوقت وتعاقب الفصول تحولت الدنيا كلها إلى صور، تُختبر بحاسة الشم وحدها، أما الكلام فقد اتخذ مكانة متدنية في سلم اهتماماتها، آدم لا يرد عليها حتى ولو حدثته عن أهم ذكرياتها، مشهد واحد فقط كان يعاود المرور ولا تستطيع أن تحكيه، عندما تمسكها كل أخت من كتف، وزوج أمها يقف خلفها ولا تراه، في يده رجل الكرسي الخيزران، فيما مؤخرتها الصغيرة ترتفع نحو السماء في انتظار الضربة الأولى.

لم تعد ثومة تهتم بمعرفة الأيام والسنين ودورات القمر، وأصبح تشابه الأوقات يعطيها إحساسًا أكبر بالأمان، فالعمر كله يوم واحد طويل، فَقَدَ الأشخاص الذين كانت تعرفهم خصائصهم، أصبح البشر جميعهم متشابهين في كل شيء، وبدأت تنسج أفكارها على نحو أسطوري، ككائنات الأحلام وعرائس البحر.

تُسلِّم جسدها للنوم وتبقى روحها قلقة، من همسة تستيقظ، من حفيف الريح بأغصان الشجر، من فرك الحصى بالحصى، من فأر يمرق لينزلق في حفرته، من تمليس يد آدم فوق خدها، ومن لا شيء أحيانًا.

ما اختصرته من لسانها صُب في أذنيها، فأصبحت تربط الأشياء ببعضها، تعرف أن فرك الحصى بالحصى في الليل معناه أن روحا قريبة غادرتْ جسدها، فتضرب بطرف عينها للتأكد من صحة ظنها، ترى المشاعل تخترق الظلام كأنها نجوم متحركة، وتعرف بالفعل أن صندوقًا يُحمل في موكب دفن جديد.

غلَّف القمر كل شيء بطبقة رقيقة من الفضة، وثومة يشغلها الشعور الصافي بمعنى الحياة، بين ذكريات مرت ووساوس مما هو قادم كانت تقضي أوقاتها، في الليل تغمض عينيها لترى، أصبح صوت نفْسها الحقيقية هو المسموع

فقط، بعد أن توارت الأصوات الكثيرة المزيفة، واكتشفت أنها بلا حماية صارت أكثر قوة، زال خوفها من أن يكتشف أحد مكانها، فقد مرت الأيام والسنوات ولم يحدث شيء.

عندما تفكر في الأحداث التي جرت لها لم تكن تجد كلمة أفضل من «ماضٍ» فتقنع نفسها بأنه سيندثر يومًا ما هو الآخر، مثل العلامات التي يضعها الصيادون على الشواطئ كي لا يتوهوا.

أصبحت ملابسها كلها مهلهلة على النمط البدائي، تجمعها من خِرقها القديمة وبقايا ملقاة في الطريق تحولت بشرتها من الخمري إلى لون نحاسي داكن، مع تكرار العمل في الأرض ازدادت نحافتها واخشن جلدها، برزت عظام وجنتيها وقويَ عمودها الفقري، أصبحت في هيئتها بشكل عام أقرب إلى منحوتة أبنوس لا شحم فيها، فبدأت تفكر في احتياجها للبروتين.

تسللتْ ذات ليلة إلى البلدة وعادت ساحبة في يدها عنزة صغيرة، ربطتها وتركتْها تلتهم الزرع وتشرب من الصفيحة بما فيه الكفاية، ثم نيمتها على جنبها وبدأت تحز رقبتها بالسكين، ارتعشت عندما رأت رأس العنزة ينفصل والدماء تُغرق ملابسها، خرج لسان الغنمة وارتعشتْ أقدامها وشرعتْ عيناها نحو السماء، راقبتْها ثومة وهي تفقد دمها كله، ثم جلست بجوارها كقاتل ينتظر جزاء ما فعل، تمنت لوهلة أن توقف النزيف، أو تُعبئ دمها في بطنها وتُلصق رأسها في عنقها مرة أخرى، ثم تشد ذيلها لتجري من أمامها، لكن الوقت كان قد فات، فعلقتها من قدمها في نتوء غصن مبتور فوق وتد المرجيحة، وبدأت عملية السلخ، شقت بطنها وأزالت عنه كل المحتويات اللينة، عادت إلى التقرفص بجوار العنزة وهي لا تدري ماذا ستفعل بها، بعد تأمل طويل دفنت الرأس المقطوع وتجنبت النظر إلي العينين، بدأت تقطيع اللحم وغسله، وضعت ضلعًا كبيرًا فوق خشب مشتعل، ثم جمعت كُتل الدهن وجففته لتختبره في صنع الشموع.

كانت أحيانًا لا تُجيد التصرّف في بقايا الطعام، فتجلب الفوائضُ المتعفنة القوارض، وأصبح من الطبيعي أن ترى الفئران السمينة تقترب، تخرج من جحورها بسرعة البرق، وتعود متخمة تترنح ببطء.

أنقذها العمل بنشاط من التفكير والكآبة، اعتادت قفز الضفادع وسماع نقيقها أثناء الليل، صنعت لها الطبيعة أصواتًا بديلة عن كلام البشر، وأصبح لكل وقت موسيقاه. الليل يختلف عن النهار، وملمس الأرض الندية بالمطر في الشتاء يتغير مع هبوب رياح الخريف، عندما قاربتها الأشجار في الطول أقامت العصافير أعشاشها فوق الأغصان، وأودعتْ فيها البيض والدفء، نادت الطيور

بعضها بلَغتها فحطت بعض حمامات فوق ستائر الخُضرة، وسَعَتْ إلى المكان دجاجة كأنها سقطت من السماء، وضعت بيضًا فصار البيض أفراخًا.

مع الوقت تعلمتْ صنع جراب للاحتفاظ فيه بما تبقى من طعام، أما بقايا اللحم فتُخبئها في لفائف الدهن لتطهيها لاحقًا.

في غبشة الفجر غطت رأس ابنها بجلابيتها القديمة، تسللت إلى سوق البلدة لشراء بعض المستلزمات، فقد تبقى مبلغ من عملها مع الشيخ سلمان، في الطريق أخذت ترتب في رأسها الأشياء التي تحتاجها ولا تنبتها الأرض: مجرفة، سكين كبير، بلطة، بكرة خيط وإبر من أحجام مختلفة، ملح وسكر، بوتاس وزيت ودقيق لصنع قوالب الصابون، قبل عودتها ساومتْ بائعًا على ديك لأفراخها الصغار.

جمعت عند عودتها كل ما عثرت عليه في الطريق، عبأت بعض صخور صغيرة في صفيحة، جمعت زجاجًا مكسورًا يلمع في ضوء القمر كعيون القطط، لملمت حزمة من أغصان شجر لا تعرف لأي نوع ينتمي، ربطتها ورفعتها فوق كتفها كما يليق بحطَّاب، جلست طويلًا أثناء العودة تستريح، وبالمرَّة تراقب الطريق، تتأكد هل يتعقبها أحد؟ ما إن وصلت بأمان حتى أفرغت الحجارة، رشقت الأغصان في الأرض وكومت القطع الزجاجية خلف شجرة.

كان الفصل يسلمها للفصل الذي يليه، فتجد أمامها ثمارًا متنوعة لم تخطط لوجودها، زهرة بلون البنفسج، شجرة تطرح برتقالًا بطعم الليمون، وأحيانًا نبات يغيبها عن الدنيا عندما تمضغ أوراقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٠

قضت العام بعد العام، وهي تُجرب رؤيتها المحدودة على الدنيا الكبيرة، تميز فصل الربيع بروائحه القوية التي يحملها الهواء أثناء الغروب، تختلط حبوب اللقاح بالغبار وتصنع دوامة تطغى على جميع الروائح، أما فصل الشتاء فتستنشقه قبل موعده، تراه أولًا في قمم التلال الصخرية عندما تبيضّ كالعظام، فتنتظر الأمطار التي توفر عليها مشقة ملء الصفائح ودلقها في قنوات الري الصغيرة.

لم تحب فصل الخريف بسبب الغبار والأتربة.

تعلمت الطحن برَحْي القمح بين حجرين، وتعلمت العجن وصنع الخبز بإلقاء الأرغفة على إناء مقلوب فوق جمر، أصبح لديها وقت طويل للعناية بآدم، تخط عينه بكحل تصنعه من رماد الخشب المحروق، فتراه كما تحب أن تراه، مثل رسومات الفراعنة على جدران المعابد، أو تحممه وتتركه يلهو عريانًا، وأحيانًا تتصنع أنها ستجري وراءه فقط لتسمع صوته الذي يشبه الدنيا عندما تضحك.

تحولت المرئيات كلها في ناظريها إلى عناصر تخيلية، وأصبحت شتى الوقائع التي تمر في رأسها محتملة الحدوث.

بدأ وزن آدم يثقل ولم تعد الصفيحة تكفيه منذ أن أتم سنته الرابعة، فقد طقطق الصاج ورأت قدمه تنزف وهي تتدلى من قعرها، ففكرت في ابتكار طريقة جديدة لحمله، أحضرت الباب الخشبي الصغير الذي عثرت عليه ذات يوم في طريق الجبانات، دقت فيه سنادتين تكفيان لبيات قدمي ابنها، ثم أوقفته فوقهما وشدت صدره الصغير بحزام الكفن الجلدي، رفعت الباب الخفيف على ظهرها، فأصبحت الطيور تراه من أعلى كمسيح صغير.

خزنت صفائح علف من فائض محصول الحبوب لتصطاد به الطيور، وبدأت في تجميع حجارة من أحجام مختلفة للدفاع عن نفسها إذا لزم الأمر، فقد لمحت ذيل كلب ذات ليلة غاب فيها القمر، لم يكن خوفها من الكلاب هو الذي جعلها تتخذ التدابير اللازمة، لكنها كانت تخشى أن يكشف النباح عن مكانها.

امتلأت الأرض خارج الحفرة وداخلها بالجرجير والباذنجان والكوسة، وعلى بُعد خطوات شقت خطين زرعت فيهما الفلفل والبامية، كانت أحيانًا تزرع حبوبًا دون أن تعرف نوع المحصول الذي ستخرجه لها الأرض، فتتجمع حولها طيور من أنواع متجددة دائمًا، استخدمتْ أوراق القرع الكبيرة لإطعام السِّمَّان، فكان يحط فوق الأغصان من تلقاء نفسه في انتظار الوجبة، كما حفرت جحرًا لطمر البطاطس بالنار وشيّ الفلفل والباذنجان.

في المساء كانت ثومة تنتظر أسراب الطيور وهي تنثر الحَب بطول ذراعها، عندما تناجيها تضرب بأجنحتها وتحط فوق الأشجار، تقلَّص عالمها الخارجي ولم يعد يهمها كثيرًا، أصبح كل شيء يحدث بالداخل.

دُبِغتْ بشرتها بقسوة المناخ، واسودَّتْ كليًّا.

توزعتْ رغبتها في الكلام بين حواسها الأخرى، فَقَوِيَ نظرها وبدأت حاسة الشم تتضاعف لديها، كانت تسمع أصواتًا ثم تكتشف أنها لم تحدث، واختلطت عليها الأحلام والهواجس مع ما وقع بالفعل في سجل الماضي.

استحال جوف الحفرة إلى غابة صغيرة تُخفيها وابنها عن الأنظار، وبدأت تشعر بأن كثافة الزرع أصبحت سُلطة تحميها.

لم يعد ينقصها سوى أن تمنح كل شيء اسمًا جديدًا يوافق خيالها، غير تلك الأسماء التي اخترعها البشر من قديم الأزل.

ضَعفَ الباب الصغير ولم يعد يتحمل آدم، تمامًا مثلما حدث مع الصفيحة من قبل، أصبح الولد ينزلق منه وكادت قدمه الضعيفة أن تنكسر، فاتخذت ثومة لنفسها مقعدًا تحت السقف الأخضر بين ستائر اللبلاب، وجلستْ تفكر في بدائل.

تمكنت خلال السهرات الطويلة من صُنع صندوق صغير يكفي ابنها، جمعت من الطريق أخشابا مدفونة في الطين، جردت عن سطحها الريم الأخضر بسكين، صممت الصندوق على شكل مستطيل، ثم ركَّبتْ له يدين من بقايا ساقية مهجورة، دقت فيه الصفيح والمسامير التي جمعتها من مخلفات الأرض، لكنها لم تعرف كيف يمكنها تحريكه، لم تجد شيئًا حولها يصلح لذلك الغرض، فعادت إلى أطلال الساقية وخلعت طنبورتين خشبيتين وبعض البرشام الصدئ، ضبطت استدارتهما بالبلطة فصار لديها عجلتان، دقتهما في جنبي العربة بخوابير خشبية، وأصبح بإمكانها أن تتحرك بآدم دون التفكير في صعوبة حمله.

مرت السنوات وهي تحاول تمرين نفسها على حل مشكلاتها البسيطة، ترفأ الملابس وترقعها، أو تدرب آدم على قضاء حاجته تحت شجرة اللبلاب، أصبحت تقيس حياتها كلها بحسب نمو المحاصيل وتعاقب الفصول.

في وضعها الجديد لم تعد فكرة تقييمها من الأشخاص تعنيها بأي حال، فلن يزدريها أحد، ولن تنتظر التكريم من أحد، كأنها معلقة في الهواء بين كل شيء ونقيضه، استحالت الدنيا إلى أفكار مجردة وألوان، الخوف من المجهول فقط هو الذي يطيّر من عينيها النوم.

باتت تتخيل رؤية كلب يريح رأسه على مخالبه وينتظرها هناك، يقترب فتوقظها قوائمُه المنتصبة فوق صدرها، أو ذئب لا تنتبه إليه إلا وهو قابض بأنيابه على عنق آدم، لكن الليالي تعاقبت ولم يحدث شيء.

تغلبتْ على خوفها بابتكار بعض الألعاب، ترص الزلط وتحيط عليه بعصا، تدحرج كريات الطين فتستقر في ركن منخفض كطابور بشر لم يُخلَّقوا بعد، أو تصنع من الغاب قصبة ناي تزمر بها في أذن آدم.

لم تعد تحتاج للنقود في شيء، بل لم تعد متأكدة أن فلوسها هذه لم يبطل استخدامها في الأسواق، فكرتْ طويلًا في خطر النزول إلى البلدة، تشابهت الأيام عليها ولم تستطع تمييز يوم السبت، يوم السوق، وضعت ذيل شالها في فمها عندما سمعتْ موجة هتاف جديدة، لمحت جنازة تسير باتجاه غرفتها، فتوقفت بالعربة حتى لا يراها أحد، بعد أن هدأ غبار موكب الدفن أكملت طريقها باتجاه السوق.

اختلفت الشوارع كثيرًا عنها يوم أن غامرتْ بالنزول للمرة الأولى خلال عمليات البيع والشراء لم تعد ثومة تستوعب ما تعنيه الأرقام.

أثناء رجوعها قطعت يد متسول طريقها، شاب كسيح ومتكوم بجوار بيت قديم، رأته يدق مكيالًا بقصعة مقلوبة أمامه، سمعتْ صوته وهي تخفي ملامحها قدر استطاعتها.

«شلن لله يا خالة».

كان الولد ناضجا بما يكفي لأن يتزوج وينجب، فتوقفت ثومة طويلًا عند قوله «يا خالة» شدت جلد يدها، كانت المرة الأولى التي تلحظ فيها بروز عروق خضراء، اسودَّ الجلد عند أصابعها وعَجَف، عندما لم تنفح الولد شيئًا اكتفى بالتحديق إليها حتى اختفتْ.

عثرت في طريق عودتها على ملابس عسكرية كاملة ملقاة في كيس كبير، أفرول مموه ربما كان لجندي أنهى خدمته العسكرية أو هرب منها، أخذته معها وغسلته، بعد أن جففته الشمس ارتدته، أعطتها البيادة والكاب ثقة زائدة في قدرتها على محاربة الأخطار.

غسلت رأس آدم بالماء والصابون، تحمما معًا وتبدلت رائحة العرق برائحة الخوخ، أخذت ابنها في حضنها وظلت تمسح فوق شعره الهائش بلون قشرة الأرز. «ربنا كبير»، تقول وهي تحاول تناسي أنه لا يتكلم ولا يمشي.

عندما سمعت عواء ذئب انتصبت مثل خشبة وهي تسحب آدم وراءها، خرجت من الحفرة ببطء، رفعت أمامها فرع شجرة لكنها لم تلمح شيئًا، عندما استيقظت لم ترَ سوى بريق يومض بسبب غشاوة النوم، لم تُصدق أن

سنوات كثيرة مرت، فقد تغيرت أشياء كثيرة خلال وقت قصير، منذ أيام فقط كانت تستسلم لأختيها التوأم، تقب إليتها ويتغير لونها من الوردي إلى البنفسجي، ومنذ أيام تعلَّقت في رقبة إبراهيم بعد كتب كتابهما، ومنذ أيام أيضًا كانت تستعد لاحتفال كبير لم يتم، لم تحصل إلا على حمل السباخ وسلخ ذراعيها بحِزم القش خلف المطحنة، مرَّ كل شيء كَزفْرة.

وحلَّ فصل الصيف.

عندما استعرت الشمس من جميع الاتجاهات، رطَّبتْ ثومة الجو برشرشة الماء من الصفيحة، الأرض تمتص كل ما يُلقى فوقها، كان الجو حارًّا دبقًا بالغبار، في قلب الليل مرت نسمة لطيفة، تمددت ثومة على ظهرها وعادت للشرود. غام وجهها بين رذاذ الماء ورائحة النجيلة، ألفت المكان حتى أصبح يفوح منه عطرها الخاص، راحت في غفو متقطع فشعرت بأن الأرض تصعد بها وتهبط، كأنها قلب كبير ينبض، تراقب بطرف عينها المرجيحة وهي تتحرك بفعل النسيم.

لا تعرف هل أخذتها غفوة أم لا، كان الأفق كله أمامها يشبه خيوط عناكب زجاجية تضيء في الظلام.

انتظمت أنفاسها فراحت في غياهب الأفلاك، لم تدر إلا والنجوم البعيدة تسقط على الأرض في لمحة، ثم أخذتْ تقترب على شكل أقواس مضيئة، وتناهى إلى سمعها أصوات متفرقة شقتْ سكون الليل.

آخر ما سمعته صوت طلقة، وآخر ما رأته مشاعل تحيط بحفرتها، فتحوَّل الليل إلى نهار في لمح البصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١١

كان مساءً من الصعب تصنيفه، وجدت ثومة نفسها تجلس القرفصاء في حوش بيت لا تعرفه، تسند رأسها إلى باب ضخم مصنوع من أشجار الجميز، وآدم يرقد في عربته شبه نائم، يتنهد وينظر إلى الجميع بغرابة، تحلق بعض الرجال حول ثومة، تأملوها بعيون مفنجلة كأنها شخص ناجٍ من الغرق، وشيخ لا تعرفه يجلس أمامها ويوجه إليها استفسارات بصوت رزين.

«لماذا لا تجيبين عن أسئلتي يا ست؟».

أول ما جلست استغرب الرجالُ هيئتها، ملامحها النحاسية الجامدة، ملابسها التي لا يعرفون لأي بلدة تنتمي، جلد يدها يشبه بشرة المومياوات، صوتها متحشرج يصعب تحديد مقامه؛ هل لرجل أم لامرأة، كانت تتمتم بشفتيها دون كلام، كأنها تقرأ تعويذة أو تُسبِّح، فمنهم مَن تصوَّرها مؤمنة مُتبتلة، ومنهم مَن تخيلها دجَّالة ساحرة، ومنهم مَن أجَّل رأيه في انتظار ما سيقرره كبيرهم.

كانوا يهتزون أمامها كصورة مُنعكسة على صفحة ماء.

في البداية، منع الخوف دخول الهواء إلى رئتيها، كانت على وشك أن تصاب بالإغماء، فلم تعتد أذنها رنين الكلمات في مكان مغلق، بدت أصواتهم جميعًا غريبة، ملامحهم واضحة وقريبة منها أكثر من اللازم، ألوان ملابسهم زاهية كأن أحدًا رسمها فوق أجسادهم، تسللتْ إليها روائح الأماكن المغلقة والمنسوجات الصناعية، الأرض مفروشة بالسجاجيد والوسائد، دهان البيت حديث ورائحة البوية تخرج من كل شيء، تذكرتْ أنهم عندما جروها من حفرتها التي زرعتها خلف الجبل كانت تعبق برائحة الكافور والريحان، ذلك قبل أن تغادر أرضها بين رجال أشداء تحت تهديد السلاح، تحرك كل شيء من حولها كالأطياف.

أفرجتْ ثومة عما في نفسها بما أسعفها من كلمات، فرددتْ بصوت مُجهَد: «لقد قلت كل شيء، قلت لا أعرف».

وقف الرجل فوقف من خلفه رجاله الأشداء.

«لا تعرفين كيف حفرتِ وزرعتِ وبنيتِ لكِ بيتًا غاطسًا لا يُرى، لا تعرفين كيف عشتِ كل هذه السنوات فوق أرض نملكها؟ أنا الذي أريد أن أعرف، كيف تحملتِ الشتاءات والأصياف طيلة كل هذه السنين وأنتِ امرأة وحيدة؟».

فشدتْ صدرها وقالت:

«لستُ وحيدة، كان معي ابني، آدم».

بدت كورقة شجر طافية فوق سطح بحر، لا تتحكم في شيء، ولا تعرف إلى أين ستأخذها الأمواج، لف الرجل حولها يتأمل ملابسها المثقوبة وأهدابها التي تجرجر القش، زغر لابنها المستسلم في عربته وقال: «عندما انتهت الحرب على الجبهة تجددت حربًا أخرى مع عائلة مجاهد، ولولا ذلك، آه، كان زمانك راكبة أرضنا لسنوات أخرى قادمة».

جفَّ ريقها وهي تقول:

«أرضكم؟».

بسؤالها أرادت التأكد من أن حفرتها لم تعد ملكها، كان لسانها مربوطًا عن الكلام، تراهم من حولها أشباحًا نزلوا ضيوفًا في بيتها وليس العكس، رجالًا ترتجف فتحات أنوفهم وتتقلص ملامحهم، يحاولون بشتى الطرق إبداء تضامن مع كبيرهم.

رأت ثومة أن وجود آدم بجوارها هو فقط الشيء الحقيقي، أما ما بقي من المشهد فشيء خيالي لم يحدث.

كان كبيرهم حزين الهيئة عميق الصوت، رجل مُسن غليظ الملامح تسبق دقات عصاه حركة لسانه، نظر مباشرة في عينها، يريد أن يعرف عنها أي معلومات تُريحه، فقال: «هذه أرض حدودية، عليها نزاع بين عائلتي وعائلة مجاهد، ظلت بورًا عشرين سنة، حتى جئتِ أنتِ يا ست لتزرعيها، فظنت عائلة مجاهد أننا وضعنا أيدينا عليها من جديد، وهذا هو سبب مراقبتنا لكِ طوال الأيام الفائتة».

همهمتْ خلفه أصوات بشرية خالية من الكلمات.

تأملتْ صاحبتنا الرجل وهي تفكر طويلًا في معنى كل كلمة يقولها، فلم تسمع صوتًا بشريًّا منذ مدة طويلة، بدا لها الأمر مزعجًا ويحتاج إلى تمهيد، قالت: «أنا لا أعرف شيئًا عما تقول يا عم، لقد كنا نائمين وأيقظتمونا».

قلَّب الرجل في رأسه جملتها التي تقبل احتمالات كثيرة، أمسك بغليون أسود له ساق طويلة، أخرج من جيب صدريته علبة تبغ وعبأ التجويف المحروق، ثم أخذ يمص الساق قبل أن يشعلها، بق بق، مد رجل من الخلف يده بعود ثقاب متوهج، فاستطعم كبيرهم أنفاسًا أولى متلاحقة ثم مد يده بشيء معدني يلمع تحت الكلوبات، وقال: «وهذا، لماذا كنتِ تحتفظين به في ملابسك؟».

تأملتْ ثومة يد الرجل جيدًا، استغرقتْ وقتًا أطول من اللازم حتى تستوعب ما في يده.

«هذا ليس ملكي، إنه مسدس الحاج سلمان».

أخذ كبيرهم يُخرج صوتًا متقطعًا من الغليون.

«بق بق بق».

عندما خرج الدخان من منخاريه سعل وقال:

«الحاج سلمان، آه، هل هي كذبة جديدة؟».

همَّتْ ثومة بالكلام لكن الرجل وضع يده في طريقها طلبًا للسكوت، وتكلم هو: «لا أصدق أنكِ أتيتِ إلينا من الفراغ، من المجهول، حتى الأشباح كنا نعرف أرواح أصحابها الأصليين».

اعتدلت ثومة في جلستها وحاولت أن تظهر كامرأة قوية رغم كل ما يحدث حولها: «هل أفهم من كلامك يا عم أنني متهمة بشيء؟».

سحب نفسًا طويلًا من الغليون وقال لها بعد أن هدأ سعاله:

«من الأفضل لكِ ألا تكذبي، أريد فقط أن أعرف من الذي دسَّكِ علينا؟».

لم يكن لها في حذلقة الكلام وتزويقه، فاندفعتْ تقول بثقة: «أنا لا أكذب أبدًا».

لم يرد الرجل، تأملها وقد استبد به الغضب، كان يجب أن تتكلم ليمكنها الدفاع عن نفسها.

«لم أكن أعرف بأنها أرضكم».

انزعاج طفيف ظهر على ملامح آدم عندما دق كبيرهم عصاه فوق البلاط. صدرت عن همهمات وزفرات تتراوح بين اللطف والغضب، لف الرجل حولهما دورة كاملة، كأنه لا يجد كلمات ينطق بها: «وهل تريدين مِنِّي أن أصدقكِ؟ أصدق أنكِ لا خبر لديكِ بأننا خضنا حربين خلال هذه السنوات، في الأولى أُخِذتْ منا الأرض وفي الثانية أعدناها منهم مرة أخرى».

وقفت ثومة وعلا صوتها قليلًا:

«أنا لم آخذ أرضًا من أحد يا عم، فقد كانت أرض ربنا، كل ما فعلته أنني سقفت حفرة لي ولابني لتحمينا من البرد والشمس».

أراح الرجل عجيزته فوق أريكة عريضة وقبض بيديه مجتمعتين على رأس عصاه، ثم أمر أحد رجاله بالاقتراب.

«قل لها ماذا رأيتم عندما كنتم تراقبونها».

اقترب الرجل وهو يرجمها بنظرات متقطعة هي وابنها، وقف يُمثِّل ما رآه بطريقة رديئة.

«رأينا شبحًا لجندي، يظهر بملابس الجيش عندما تظلم الدنيا، أحيانًا ينبت فوق صدره طفل يتمرجح به، وأحيانًا يصعد إلى المرجيحة وحده ويلوح للطيور فتقف على كُمه».

وفجأة هجم الرجل على ثومة ونزع غطاء رأسها، فبان شعرها ملبدًا وهائشًا، وسُمِع صوت أحد الرجال من الصفوف الخلفية: «هذه لا بد ساحرة كما قلت لكم منذ أن رأيتها أول مرة، ويجب أن تُحرق أمام الناس كي لا يتبعوها».

هش كبيرهم الرجل كالذبابة وأمره أن يعيد الغطاء إلى رأس المرأة مرة أخرى، ثم وجه كلماته مباشرة إليها: «أين بطاقة تحقيق شخصيتك، أين شهادة ميلاد ابنك».

شعرت ثومة أنها متهمة بشيء لا تعرفه، ولن تستطيع الدفاع عن نفسها أمام كل هؤلاء الرجال، فنكست رأسها وذبل صوتها: «لا توجد معي أوراق لأي شيء، فأنا لا أحتاجها، كل ما أريده أن أعيش مع ابني في أمان، ليست لديَّ أي مطالب ولا أريد شيئًا منكم أو من أي إنسان، لا داعي للخوف مني، فأنا كما ترون امرأة وحيدة وابني طفل عاجز».

أمر كبيرهم أحد رجاله بلهجة صارمة:

«أحضر حبيب البستاني».

بعد قليل فُتح الباب ودخل رجل يستمد هيبته من ملابسه، فقد كان يرتدي ثوبًا طويلًا أزرق، مشغولًا بحرير أبيض ومقصَّب بخطوط ذهبية، يلف عمامة بيضاء حول طربوشه الشامي القصير، فسأله كبيرهم: «هل أعطاك الرجال عينات الزرع والشجر؟».

ظهرت لحبيب البستاني هيبة أخرى مُستمدة من مقام صوته، عريض ونبرته رزينة، قال: «عاينتها كلها، أغلبها من زروع نعرفها مثل التوت والطرفاء واللبلاب، لكن هناك زرعتين غريبتين عن مصر، زهرة شقائق النعمان، وهذه لا توجد إلا في الأردن وبلاد الشام، ونبتة بخور مريم وهذه لا توجد إلا في كازاخستان».

مرة أخرى انطلق صوت الرجل الجهوري الذي خلع غطاء رأس ثومة: «قلت لكم لا بد أن تُحرق، فهذه مصيبة وحطت على البلد».

ثم أمال فمه على أذن كبيرهم، فهز الكبير رأسه مُستحسنًا ما سمع، غاب صاحب الصوت الجهوري قليلًا ثم عاد وهو يحمل لفافة ملابس جديدة، ألقى

بها في وجه ثومة، أمرها بارتدائها، وطلب منها أن تُعبئ ملابسها الموبوءة في كيس وتُحكم إغلاقه، كان الرجل ممتعضًا وهو يكلمها، كأنه يمضغ شيئًا متعفنًا.

لم يكن أمامها حل آخر وسط هذا الجيش من الرجال إلَّا تنفيذ الأوامر، فسلَّمتْ للرجل الممتعض صُرَّة ملابسها، سرعان ما ألقى بها فوق خشب مشتعل وسكب فوقها زجاجة جاز، بعد قليل، لم يتبق من ملابسها إلَّا كومة رماد سوداء.

تقرفصتْ مرة أخرى وهي ترتدي الملابس الغريبة، رفَّت الأسئلة مجددًا فوق رأسها، بدت لها كلمات الشيخ كأنها قادمة من بعيد، كادت أن تنادي على أختيها: يا نفيسة، يا مهجة، لم تعد تملك إلَّا اسميهما، أما ملامحهما فتدور في رأسها على شكل خرابيش، عندما ملَّ كبيرهم من ردودها الغريبة قبضتْ أصابعه على يد عربة آدم كالكماشة، لوح بعصاه إلى الخارج ووجَّه كلماته للرجال الواقفين خلفه: «قدموا لهما الطعام، وفي الصباح اتركوها تمضي مع ابنها».

ثم رفع عصاه ونخس بها رجلًا من الواقفين:

«قبل كل شيء، ابحثوا معها عن أي أسلحة أخرى، وخذوا عليها تعهدًا بعدم العودة للأرض التي احتلتها في غفلة منا».

ثم اقترب من ثومة وتأملها:

«سأسامحك وأتركك دون عقاب لأنني سأُحملكِ أمانة يا ست، فقد اتجه ابني نجيب إلى الجيش قبل المعركة الأخيرة، وبعد أن عَبَرَ الجبل لم نعثر له على أثر حتى الآن، وحياة حبيبك النبي، لو أنكِ بالفعل ساحرة وظهر في إحدى تعازيمك قولي له إنني أنتظره، وقولي له أيضًا لا تخف يا نجيب، فإن الحرب قد انتهت».

ثم التفتَ إلى رجل مُسن من الواقفين خلفه وقال له:

«يد الرحمن كانت فوق كتف هذه المرأة، وإلا كيف عاشت طيلة هذه السنين بمفردها دون مساعدة من أحد!».

سمعته ثومة فعادت ووجَّهت إليه كلامها بثقة أربكته:

«لستُ بمفردي يا عم، كان معي آدم».

باتت ليلتها مع ابنها في مخزن مليء بأجولة الطحين والتبن، وبحكم العادة بحثت عن منفذ يُريها البراح، طلعت فوق رصة أجولة حتى طالت أصابعها نافذة عالية، لم تر إلا ركنًا صغيرًا من السماء، أحكمت قبضتيها على حديدها وهي تنتظر بريد النجوم البعيدة، وسرحتْ عينها في غشاوة الليل.

لم يعطوها فرصة لتودع حفرتها التي قضت فيها كل هذه السنوات، زرعت أصناف نباتات لا تعرف حتى أسماءها، ولا يمكنها أن تحلم بها في المستقبل.

خبأتْ بعض الأرغفة الطرية تحت ملابسها.

في الصباح حمل أحد الرجال دفترًا يشبه الكمبيالات وكتب فيه كلامًا، اقترب من ثومة وبصَّمها بأصابع يديها الاثنتين، رفع الرجل ابنها الذي لا يستطيع المشي وألقى به فوق صدرها: «ناس زبالة صحيح».

شدَّت صدرها للأمام وعلا صوتها:

«لسنا زبالة، نحن أنظف ناس، الظروف هي الزبالة يا عم».

همَّ الرجل بلكمها، فمنعه خفير يحمل السلاح، أشارت ثومة إلى الصندوق الخشبي: «أريد العربة».

لم يبدُ على الرجل أنه فهم مقصدها، تلفت حوله في غرابة، فسحبتها من أمامه وخرجت.

كان آدم يُغمض عينيه والنعاس يغالبه، كل برهة يقع رأسه الكبير فوق صدره المنكمش على نفسه، دفعت أمه العربة أمامها، وقف الرجال بالخارج يتابعونها، يتأكدون من أنها ستسير عكس اتجاه أرضهم.

أعطتها الشمس قوة في التذكر فاسترجعت ما حدث ليلة أمس، عندما داهمها صوت جماعي قوي وهي نائمة فوق المرجيحة، هجم عليها فريق من الرجال بمشاعلهم وعصيهم. كان آدم يلهو بعود قش، وفي الأسفل تضع قِدرًا فوق النار تسلق فيها يمامتين، لم يمهلوها حتى تستمتع بليلة أخرى من ليالي الصيف المُحمَّل برائحة الريحان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٢

ما إن مرَّ الخطر حتى نسيتْ ثومة كل شيء، لوهلة، شعرتْ أن حياتها عبارة عن تكرار لوعود لم تتم، وأنها كي تُكمل مسيرة الحياة فعليها عدم الاحتفاظ بالماضي كثيرًا، لا تتذكر من حياتها في الحفرة سوى بعض إصاباتها المتنوعة؛ كتف مخلوعة، ضلع مكسورة، عين متواربة من كثرة التلصص على الفراغ.

كل ما يهمها الآن كيفية العناية بابنها خلال الأيام القادمة.

في الطريق، خلعت عن آدم ملابسه، غسلتها في حوض شرب الماشية وعلقتها فوق جذع شجرة، جلست في الظل وأخذت تهز اليدين الخشبيتين وتلاعب ابنها، تصنع له تاجًا من العشب وتضعه فوق رأسه، استعادة مؤقتة لبعض الملذات الضائعة.

عندما أصبحت ثيابه نصف جافة ألبسته إياها، دفعت عربته الخشبية حتى تركا الطريق الزراعي وظهر من بعيد شريط الأسفلت.

تسير الحياة بشكلها المعتاد رغم كل ما حصل لها، النساء يتسوقن ويفاصلن مع الباعة، والرجال يدخنون ويشربون الشاي على المقاهي، الصِّبْية يقودون ماشيتهم إلى الغيطان، والعجائز يجلسن فوق المصاطب، يمسحن بعيونهن الشوارع الضيقة والأرصفة.

عادت إلى مَرسى المركب الذي أقلَّها إلى تلك القرية منذ سنوات، لم تجد المركب ولا المراكبي، كان مكان المَرسى كوبري حديث المنشأ، وأسفله مشتل ورد.

أثناء بحثها عن الطريق العمومي خذلتها عربة آدم، انكسرت إحدى عجلتيها، لم تحتمل مكوناتها البسيطة مثل هذه المشاوير الطويلة، مرت على دكان حدادة يعمل به رجل نحيف أكرت الشعر، فطلبت منه المساعدة، نظر إليها وهو يغطي وجهه بقناع ويخرج من حديده الشرر، تحيط به هالة من رذاذ ضوئي.

انحنى على العجلة المكسورة واختبرها بيده.

«من أين اشتريتِ هذه الأشياء؟».

فقالت ثومة:

«أريد فقط أن أحرك الولد بها».

فألصق لها طبقين حديديين من كوم خردة بجواره، دق كل منهما بمسمار كبير وصامولة، ما إن أمسكتْ يد العربة حتى تحركت بشكل أفضل، دفعتها

أمامها فمد الرجل إليها يده التي تحمل قناع اللحام.

«حساب الخامات والصنعة يا ست!».

فقالت وهي تسوي فرشة العربة:

«سأجعل آدم يدعو لك يا عم».

نظر إلى ابنها وتأمل رأسه الكبير، سحب عُقب السيجارة من بين شفتيه وسحقه تحت حذائه، أنزل القناع فوق وجهه وعاد يقدح الشرر في الحديد مرة أخرى دون أن يتكلم.

كلما اقتربت من طريق الأسفلت كان الجو يزداد حرارة والناس يتضاعفون، فكرت بشكل متقطع، لماذا حدثها الرجل صاحب قطعة الأرض عن الحرب؟ فلا هي ستحارب ولا ابنها يصلح لأي معارك، لقد صنعت سلامًا لنفسها، دبرت عيشتها بمفردها، تأكل وتشرب وتعيش النهار كله وقسطًا من الليل وفصول السنة الأربعة كاملة، لم تكن هناك حرب في غرفتها ولا في الترعة ولا في السماء التي تراها وهي تهتز في المرجيحة، كانت مثل سمكة صغيرة لا يعنيها ما يحدث في المحيط.

شكَّلتْ أضواء الشمس نجومًا أمام صاحبتنا كلما أغمضت، كانت أصوات الناس أعلى مما تحتمل أذنها، شعرت بالرغبة في أن تأخذ قسطًا من النوم، مشت متكاسلة تنسحب منها أي همّة حتى وصلت إلى الطريق العمومية.

أول سيارة بيجو وقفت لها ظل سائقها ينادي:

«مصر مصر».

حملت ابنها وألقت بالعربة الخشبية فوق الشبكة الحديدية، عندما اكتمل العدد بدأت السيارة تتحرك وتتخذ سرعتها، شقت الحقول فجعلت الحياة كلها أشبه بحلم، الأشجار تلتحم بالسماء عند حواف الغيطان، والعجلات تسلخ الأسفلت وتدفع الأرض للخلف بسرعة، خفتت حياتها السابقة من ذاكرتها شيئًا فشيئًا، حتى إن مجرد التذكُّر أصبح مرهقًا.

أخرجتْ رغيفًا مما ادخرته في ملابسها، كان الرغيف ناشفًا تعتليه طبقة من الغبار، قضمت منه ما يملأ فمها، أطعمت ابنها حتى شعر بالعطش، كان أحد الركاب يحمل زجاجة مياه باردة مُغلفة بالخيش، عزم الرجل عليها فَسقَتْ آدم وشربت، ثم شربت مرة أخرى وراحتْ في غفوة مُظلمة لم تحلم خلالها بشيء واضح، تكورتْ على آدم، حتى بات يصعب تحديد أين ينتهي جسده وأين يبدأ جسد ثومة.

توقفت السيارة بها في ساحة ميدان رمسيس، قال لها السائق:

«أجرتك يا ست، أنتِ الوحيدة التي لم تدفع».

لم تكن قد خرجت من غفو الطريق، مسحت رغاء يغطي شفتيها واطمأنت أولًا إلى أن آدم راقد في حجرها ثم قالت:

«أصل يا عم...».

بصَّ لها الرجل في مرآة الصالون، وقبل أن تُكمل كلامها أخذ يقلد نبرة صوتها:

«أصل يا عم.. الظروف يا عم.. أنا أقول لكِ الأجرة يا ست».

وقبل أن ينهال عليها بالشتائم مدت يدها فلمس بظهر كفه شيئًا معدنيًا دافئًا، لم يستوعب في البداية أنها تمد إليه إسورة ذهب.

«هذا كل ما أملكه يا عم».

التفت السائق إليها بكل جسده وقال:

«باين عليكِ نصابة».

شرحت له ثومة الحكاية كلها بطريقة ينقصها الكثير من التفاصيل.

ركن الرجل سيارته في الموقف واشترى لها ولابنها خبزًا وجبنًا وفلافل، فأكلت وأطعمت آدم، ثم مدت يدها مرة أخرى بالإسورة في وجه السائق الذي ابتسم وتأمل آدم طويلًا.

«بصي يا بنتي، أنا عندي مثلك، وأريد أن أقول لكِ كلمتين، خذي بالك من نفسك، أما الطعام فهو على حسابي والأجرة لا أريدها، فربنا له عندي الكثير».

مد يده ودسَّ ما تبقى من ساندويتشات في لفافة الصغير، ابتعد عنها باتجاه سيارته التي اكتمل فيها عدد الركاب، فسألته بصوت عالٍ:

«يا عم.. هل تعرف غرفة للإيجار تصلح لي ولابني؟».

لوح الرجل بمفاتيح سيارته واقترب خطوة.

«أعرفُ منطقة كانت زراعية اسمها المرج، أقرباؤنا كلهم اشتروا فيها، اركبي القطار من محطة مصر، وقولي للكمساري أريد أن أنزل المرج».

وقفت ثومة ترتب كمية الأوامر الكثيرة التي تلقتها من الرجل خلال وقت وجيز، أطبقت جيدًا على ورقة الطعام الممنوحة لها وظلت تبحث حولها عن القطار، لمحت رجلًا يلبس الميري ويعلق في رقبته صفارة يستخدمها كثيرًا، فاستفسرت منه:

«أين القطار يا عم؟».

لم يسمع الرجل صوتها بسبب الصخب والحر، عندما فهم غرضها أشار بيده إلى تمثال رمسيس ولم يرد، توجهت إلى النافورة واستلطفت رذاذ المياه المنعش، مدت يدها في الحوض الكبير، ملأت حفانها وغسلت به وجه آدم، اعترض أحد الجالسين على حافة الفسقية، فلم تسمع منه كلمة، كانت ملامحه غاضبة وهو يتحدث إليها، فسألته عما يشغلها أكثر:

«أين القطار يا عم؟».

طوى الرجل جريدة كان يظلل بها رأسه فبانت صلعته، وقال كلامًا تاه في زعيق الناس وجلبة السيارات.

رمتْ فوق رأس آدم طرحتها الخفيفة السوداء، كانت تريد إخفاءه عن العيون الكثيرة، تسعى لأن تجنب تحديق الناظرين في خلقته، فنظراتهم تنطق بالشفقة، وربما النفور.

في لحظة واحدة هجر أغلب الجالسين حافة الفسقية وهرولوا باتجاه واحد، عندما ذهبت معهم سمعتْ صوت زمارة كبيرة تصم الآذان، ابتلعت في جوفها كل الزمامير الصغيرة كعصا موسى.

دفعت العربة الخشبية في الاتجاه نفسه، غلبها التدافع نحو هدف واحد، كادت تنكفئ فوق ابنها ويدهسها بشر بلا عدد، بعد السير في خطوات قصيرة زاحفة رأت نفسها فوق رصيف القطار الذي يستعد لابتلاع الجميع، الركاب يقذفون بأنفسهم داخل الوحش الحديدي، يتخطون ثومة وابنها بسهولة، عندما حاولت أن تدخل مثلما يفعلون منعها كمساري يرتدي زيًّا بلون الزيتون، يمسك في يده دفترًا ويسند قلمًا فوق أذنه.

«ممنوع يا ست».

أمام كل العربات تسمع الجملة نفسها.

«ممنوع يا ست».

عادت مرة أخرى إلى موقف البيجو، تنتظر السائق الذي أطعمها وقدم لها النصيحة، أثناء وقوفها ألقت امرأة في عربة آدم ببعض القروش، فالتقطتها ثومة بسرعة وهرولت خلف المرأة.

«خذي يا ست، نحن لسنا شحاتين، هذا ابني، ونحن لسنا شحاتين يا ست».

استعادت السيدة قروشها وهي تراقبها بغرابة وتديم النظر إلى العربة الخشبية المتهالكة.

دفعتْ عربة آدم خارج المحطة، عندما رأت السائق الذي أطعمها لوحت له من بعيد، توقف لها الرجل، بعد أن أنزل حمولة الركاب.

«لماذا لم تذهبي إلى المرج؟».

«منعوني بسبب عربة آدم من ركوب القطار يا عم».

اقترح عليها السائق أن تبحث عن مكان آخر للإيجار في منطقة «عرب الحصن» فكل ما يستطيع تقديمه لها أن يوصلها، كان الطريق إلى بيته في المطرية قريبًا من عرب الحصن.

بعد أن نزلت من البيجو شعرت بنسمة هواء لطيفة ودوار خفيف، لوح لها السائق وانطلق بسيارته، فشعرت ثومة أنها طفلة تائهة، جلست بجوار صندوق ابنها الخشبي تأكل ما تبقى من الطعام قبل أن يفسد، لم تستطع أن تتذكر اسم المكان الموجود فيه الغرفة الإيجار، فاستوقفت امرأة تسير بصحبة ابنتها.

«أين المنطقة الزراعية الجديدة التي يسكن فيها الناس يا ست؟».

انتظرت المرأة لحظة تأملت خلالها ثوبها الريفي وابنها الراقد فوق القش، ثم أكملت المسير دون أي رد. بعد قليل انطلق صوت ثومة عاليا ليلحق بالمرأة قبل أن تختفي في الزحام:

«افتكرت يا ست. افتكرت، المنطقة اسمها العرب حصن».

التفتت إليها وردت من بعيد:

«قصدك عرب الحصن؟».

«صح يا ست».

بعد أن دلَّتها المرأة إلى الطريق انحشرت مع ابنها في عربة نصف نقل، لها دكتان متقابلتان تظللهما خيمة فيها من الثقوب أكثر مما فيها من قماش، ظلتْ تهتز لمدة طويلة وهي قابضة على آدم «سيدخل الليل قبل أن أتفق على غرفة للإيجار ننام فيها» قالت لنفسها وهي تتجول كالسائح في بلد غريب.

باتت ليلتها الأولى مع ابنها في ماسورة مجارٍ كبيرة لم تُستخدم بعد، كانت ملقاة بجوار سور وتحوي بعض الطوب والقمامة.

بعد أن بانت معالمُ الطريق إلى عرب الحصن فكرتْ: كيف ستدبر مكانًا للإقامة يكفيها وابنها؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

١٣

في الصباح فتحت ثومة عينها على مزرعة شاسعة يقابلها صف غير منتظم من البيوت، ولمحت رجلًا يبدو من هيبته أنه صاحب الأرض، يقف فوق حجر ويخطب في نساء واقفات أمامه بلا عدد.

«لا أريد رؤية أي لون أخضر، شجر أو زرع أو نجيلة».

اقتربت ثومة وهي تقبض على ذراع عربة ابنها.

«هل هذا شُغل يا عم؟».

نظر الرجل إليها من تحت كفّه المرفوعة في مواجهة الشمس.

«نعم شُغل، لكنه شُغل يحتاج إلى هِمَّة، ثلاثة أيام فقط، لا أريد أن أرى أي لون أخضر أمامي».

بصعوبة دفعت العربة الخشبية المتهالكة، فالأرض غير مستوية ولا يوجد فيه شبر خالٍ من الزلق، اجتهدت في الوصول إلى الرجل الذي أفرغ تعليماته وجلس تحت شجرة يدخن ويعبث في شاربه.

«هل يمكن أن أشتغل مع النساء يا عم؟».

فرد الرجل:

«نعم يمكنكِ ذلك، هل أنتِ من طرف حامد المقاول؟».

فقالت:

«لا».

فكر الرجل قليلًا وهو يختبر سيجارته بين أصابعه ويُفرغ منها التبغ الزائد.

«لقد سلمتُ دفتر اليوميات للريس حامد، لذلك فأنا لا أستطيع دفع أُجرة جديدة، لكن بوسعي أن أوفر لكِ غرفة تنامين فيها أنتِ وطفلك».

ربطت ثومة عربة آدم تحت أكبر شجرة قبل أن تشمر عن ساعديها وتلحق بالعاملات والفواعليَّة، انتشرت النساء في الأرض مثل كتل طين سوداء، ينزعن الأشجار والحشائش بأيادٍ عارية، لم تقدر ثومة في بادئ الأمر حجم العاملات، فقد فُرِشَت المزرعة بعدد لا يحصى من الجلاليب السوداء، انتشرن كالغربان يخلعن أي لون أخضر يقابلهن، ظنت ثومة في البداية أن كل امرأة ستتكفل بخلع شجرة صغيرة وتنصرف، لكن ذلك لم يحدث، فقد هدَّها العمل

في اليوم الأول بعد أن نزعت وحدها عشرات الأشجار، ورغم كل ذلك المجهود لم ينقص من شجر الأرض إلا ما تنقص قطَّارة من إناء.

آخر النهار تزايد عدد اللوريات، حمَّل العمال في صناديقها القش والشجر المنزوع ومخلفات الأرض.

في نهاية يوم العمل أعطاها صاحب المزرعة المفتاح.

كانت الغرفة البديلة عن أجرتها خالية تمامًا من أي شيء، مجرد جدران أربعة فقط، لكنها حمدت الله على نِعمة الستر، عندما هدَّها التعب من الترحال وشغل الفاعل نامت مكانها، في صباح اليوم التالي اكتشفتْ بعض أغراض تركها الساكن القديم، برميل كرتون نظفتْهُ وألقت فيه بملابسهما، لمحتْ رصة من أطباق الصاج دعكتها بالتراب والقش، ثم غسلتها حتى جعلتها صالحة للطهي.

حملت ابنها وذهبتْ جريًا في جري لتُكمل عملها في إزالة الحشائش وخلع الشجر، طلب منهن الرجل الجالس تحت الشمسية تزويد عدد الساعات، خصص لهن مئات الشكائر لنزع الأعشاب والحشائش وتعبئتها، بعد أن انتصف النهار انتشرت في الأرض آلات بعجلات كبيرة يجري خلفها صِبيان، عندما سألت عنها ثومة، قالت لها امرأة بجوارها: «اسمه ونش، مهمته ضرب الشجر الكبير من جذوره ونقل الكراكيب».

عندما نزلت الأوناش سحبوا عددًا كبيرًا من النساء، فأصبح العمل أكثر بعد أن توزع على أذرع أقل، ونزل إلى الأرض رجل سمين يمسك كرباجًا يُسمع صوته من بعيد وهو يشق الهواء، يُرهِب به العاملات لينجزن عملهن بشكل أسرع، عندما اقترب الرجل السمين من ثومة كانت قد اتخذت قرارًا سريعًا بأن هذا الشيء الذي يمسك به لن يلمس جسدها، وفي لمحة لا تستطيع العين رصدها قبضت على ذيل الكرباج في الهواء وجذبته بكل عزمها، فترنح الرجل وكاد ينزلق ويقع في الطين، عندما أفاق هاج مثل ثور، رفع يده المجردة من سلاحه وأراد أن يهوي بها فوق وجهها، لوحت دونما اهتمام بذراعها المشمر الذي يلمع بالعرق، فقال وهو يسرق النظر لباقي العاملات: «يومك أسود، هل تريدين ضرب الريس حامد؟».

أمام صاحب المزرعة وقفت صاحبتنا خلف الرجل السمين.

«هذه المرأة لا بد من طردها».

عندما فهم صاحب الأرض الحكاية ابتسم لثومة ابتسامة عطوفة وقال: «يبدو أنكِ غشيمة وأول مرة تعملين مع أنفار، وأريد أن أقول لكِ شيئًا لوجه الله، القرش الذي يكسبه الإنسان مثل الزمن، لا بد أن يترك علامة».

اقتربت ووقفت بجوار مقاول الأنفار، نظرت إليه باستهتار، مسحت بكمها طبقة غبار عند مجرى حنجرتها ثم قالت لصاحب المزرعة: «علامة على اليد فقط من أثر العمل، أما على الوجه فيفتح الله».

انتبه إليها صاحب المزرعة بتركيز أكبر وقال:

«اذهبي وأكملي شُغلك، وأنت يا حامد، اترك هذا وامسك هذه».

أخذ منه الكرباج برفق وأعطاه خيزرانة، تخشَّب الريس حامد كما لو أنه مثبت بمسمار في الهواء، عادت ثومة إلى الأرض وتبعها مقاول الأنفار صامتًا كالمنوّم.

وقفتْ مرة أخرى في صف النساء المنحنيات على اللون الأخضر كالجراد، عندما سألت جارتها في الصف: «لماذا نقتلع كل هذا الزرع ونكسر أشجار البرتقال؟».

قالت لها:

«لأن الطيارة ستمر بعد أسبوع وتلتقط الصور من الجو، وصاحب الأرض يريد أن يوثق أرضه كردون مبانٍ، لتخرج من تصنيفها كأرض زراعية، فسعر المباني خمسة أضعاف».

كانت ملامح صاحب المزرعة طيبة في اليوم الأول فقط، لكنه في اليوم التالي انقلب إلى وحش، فقد جاء إلى أرضه أشخاص يرتدون عباءات فاخرة وخلفهم حرس، نزلوا أمام المزرعة من طابور سيارات لا آخر له، رفع عليهم صاحب الأرض طبنجة وضرب طلقتين في الهواء، ثم زعق كأنه سيلفظ أحشاءه مع الكلمات: «أي شخص سيقترب من أرضي لن أفكر مَنْ يكون قبل أن أطلق عليه النار أولًا».

بعد أن سكت عن الكلام نفرت عروق رقبته وظلت تنبض بانتظام.

في يوم العمل الثالث كان يتلفت حوله كالمجنون، يشعل بوز سيجارة من عقب أخرى، ويتحسس طبنجته المحشوة طوال الوقت.

مررت ثومة يدها على دبش السور الأبيض أكثر من مرة، كأنها تقدر حجم مخاطرة الرجل بحياته من أجل هدم تلك الأحجار وخلع بعض الأشجار.

انتهى العمل ولم يعد هناك وجود للون الأخضر، لم يبقَ من أشجار البرتقال إلا رائحة أبت أن تترك الأرض بسهولة. تهدَّم السور القصير الذي كان يفصل الأرض الزراعية عن المنطقة السكنية، فأصبح الأفق متسعًا لترى من شباك غرفتها الصغيرة حدود البيوت البعيدة، في المساء بانت مشاعل شركة البترول واضحة، كتل من نار تبزغ في الظلام ولا يحملها شيء، تحيط البيوت

الصغيرة بسياج مضيء طوال الليل، والمزرعة لم يعد يُزرع فيها شيء، فور عزل كل ما هو أخضر بدأ الحفر، جلبت اللوريات جبالا من شكائر الأسمنت والطوب الأحمر، ونقلت سيارة كبيرة كمر حديد وحمولات من أسياخ الصُّلب.

ظفرتْ ثومة بأجرة الأيام الثلاثة، وعَدها صاحب الأرض أنه سيؤجر لها الغرفة شهرًا دون مقابل، وإن أرادت الاستمرار فعليها أن تدفع كل مطلع شهر جنيهين، فأصبح شاغلها الأكبر هو تدبير المبلغ قبل أن تنتهي مهلة السماح.

كانت تقف أمام البيت تتفرج على الدنيا، فترى عربات يد تلف بالخس والفول الأخضر، ورجال يدورون بجراكن البوظة وأسبتة السوداني، راقبتهم في البداية أكثر من مرة، لكنها بعد ذلك تمنَّت الشراء من بضائعهم، وبدأت تشعر كم هي حمقاء لأنها تتمنى فقط دون أن تقبض يدها على نقود، لم تجد حيلة إلا بيع الإسورة التي تملكها، دست الثلاثين جنيها ثمنها في كيس قماشي صغير وألقت به في عبّها، قالت لنفسها، سأدفع جنيهين إيجار الغرفة كل أول شهر، ونأكل أنا وآدم بثلاثة جنيهات، لكن بعد شراء بعض العَفْش الضروري لملء الغرفة ستتبخر النقود الباقية في لمح البصر.

بدأت تدور في رأسها حسابات جديدة، استقرت قبل دخول الليل على حقيقة واحدة، لا بد أن تبحث عن عمل بأجر ثابت يضمن لها الأمان والاستقرار، اتخذتْ قرارًا في الصباح بأنها ستسأل أولاد الحلال عن عمل، لكنها لم تعرف على وجه التحديد، من هو الذي ستسأله، وأي عمل يمكن أن يناسبها.

مر اليوم التالي ولم يحدث شيء، طوال النهار كانت تراقب آدم، فتحمله من عربته الخشبية إلى الأرض الرطبة، ثم تعيده إلى عربته مرة أخرى، تسلي نفسها أحيانًا بتنظيف الغرفة من أعشاب نَمَتْ في أرضها الطينية، أو كشط بعض الأتربة من جزء منبعج ودكّها بقدميها لملء فراغ جزء آخر منخفض، في المساء أشعلت لمبة الجاز وعلقتها في مسمار، بدأت الظلال تضخم جسد آدم فتجعله مساويًا لرأسه، أخذت تؤرجحه في العربة حتى راح في النوم.

غفت لدقائق بجوار آدم ثم استيقظت، في قلب الليل هُيئ لها أنها سمعت حركة غير معتادة بالخارج، تسللت ببطء حتى لا يستيقظ ابنها، حملت اللمبة كي لا تتعثر في الظلام، سمعت حشرجة كأنها لشخص يحتضر، استحالت إلى سعال متواصل، ثم انتهت بطرقعة غريبة، اصطكاك معدني متتابع، لم يأتِ الصوت من الخارج، فهيصة الشارع تهدأ في هذه المنطقة بعد صلاة العشاء، عندما تتبعت الصوت وجدته صادرًا من غرفة صغيرة مواجهة لغرفتها، لا يفصلهما إلا الصالة، ترددت في فتح الباب بشكل مفاجئ، فمطت رقبتها تبحث عن مصدر الصوت، أول ما وقع بصرها اصطدم بقفا رجل مُسن جالس على كرسي، يشعل عود ثقاب ويمده أمام طرف سيجارة، وضوء ضعيف

يحيط رأسه بهالة صفراء، خلال لمحة لف بالكرسي نصف دورة فأصبح وجها لوجه أمام ثومة.

«هل أنت جار لي في هذا البيت؟».

ضيَّق الرجل عينيه، تأملها وقال:

«آه، أظن أني كذلك».

ثم دخل غرفته وأغلق الباب بهدوء دون استئذان.

في الصباح خرج الجار الشيخ من غرفته وهو جالس فوق كرسي متحرك، يهز ذراعه بعود الثقاب محاولًا إطفاءه ولا يتكلم، تأملته ثومة وهي واقفة أمام باب غرفتها، كانت آثار الوسادة مطبوعة على صدغيه، وشعره هائش حول رأسه مثل هالة من غبار، انتظرتْ أن يبدأ جارها المُسن بالكلام أولًا، فقال: «اعذريني، فقد طار مني حرف الهاء منذ يومين، وبالأمس كنت أضيفه بالقلم الحبر في كل هذا الكم من الأوراق، وهو أمر مرهق وسخيف، والآن، احتفلتُ بالانتهاء من المهمة فأشعلتُ ثلاث سجائر».

كان الباب مواربًا، ونور الصبح غيَّر من شكل غرفته، فظهرت محتوياتها بوضوح، كركبة صعب أن تحيط بها نظرة واحدة، سرير سِفري فوقه مرتبة مقوسة، بطاطين كثيرة متكومة في ركن الغرفة، آلة كاتبة فوق منضدة صغيرة، كتب وأوراق ملقاة في كل مكان، فقالت: «غرفتك تحتاج إلى ونش يا عم».

ابتسم جارها الشيخ وقال:

«لا أحد يزورني، فلماذا أهد حيلي كل يوم في ترتيب الفرش والأغطية؟! لا يطرق بابي إلا بعض الطلبة، أنسخ لهم الأبحاث على هذه المصيبة، أما الجيران فأغلبهم يخافون مني، هل تخافين مثلهم؟».

انتصب عودها أمامه.

«ما دام ربنا موجود فلماذا أخاف يا عم؟».

لف عجلتَي الكرسي كأنه يريد الخروج من البيت، مكَّن السيجارة جيدًا بين شفتيه ثم أخذ يلف رأسه ببطء ويتأملها.

«أنا عجوز بما فيه الكفاية، ألا يكفي هذا للخوف؟».

لم تفهم شيئا من كلامه فقالت:

«لا تغضب يا عم. ربنا كبير».

ثم سألته:

«لماذا استغرقت وقتًا طويلًا حتى فتحت لي بالأمس؟».

أشار إلى باب غرفته وتأمله طويلًا:

«لن يطرق إنسان هذا الباب ليُسدي إليَّ معروفًا، غالبًا سيمد يده طالبًا منّي شيئًا، لذلك أفكر ألف مرة قبل أن أقرر فتحه، وغالبًا لا أفتح».

كان الرجل يرتدي بيجامة مقلمة مقاسها أكبر منه بفارق كبير، كطفل يُجرِّب ملابس أبيه، بدا نحيفًا وبائسًا وهو غاطس في الكرسي المتحرك، أخذ يفر أرشيفًا من الصور بالأبيض والأسود، ثم أغلقه وسحب نفسًا عميقا، نفث دخانًا شوَّش على ملامحه: «هل تشربين معي قهوة بيضاء؟».

دارت ثومة فمها بطرف شالها الأسود وهي تضحك وتسأله: «وما هي هذه القهوة البيضاء؟».

دفع الكرسي ببطء وخرج بعد قليل يحمل صينية ألومنيوم مضعضعة، فوقها كوبان، ماء عكر يخرج منه دخان، عندما مدتْ يدها وأخذت كوبها ترددتْ في تقريبه من فمها، بعد قليل تذوقته، ابتلعته بصعوبة.

«هذا ماء مغلي مُحلى بالسكر، وعليه زهر ورد».

قال وهو يرشف من كوبه باستمتاع:

«لا يوجد لديَّ بُن، فاخترعتُ لنفسي هذه القهوة البيضاء، أغلي الماء وألقمه بالسكر وأي شيء آخر يكسر طعم المياه الساخنة، زهر ورد، ماء ورد، أو عود نعناع، أقدمها لضيوفي، أي نعم هي لا تعدل المزاج مثل البُن، لكنها تنظف المعدة وتساعد على الهضم».

أكملت ثومة كوبها وقالت:

«أنت غلبان، لا يمكن أن تخيف أحدًا».

«غلبان!».

«أه. كل عباد الله غلابة يا عم».

«ليس بسبب أنني رجل عجوز فقط يخاف الجيران مني».

كان يراقب ملامحها فلا يرى أي تغيير طرأ عليها، كأنها تنتظر شيئًا أهم لم يأتِ دوره بعد، فرفع رِجل بنطلونه اليمنى لتبدأ عند أعلى فخذه.

«إنهم يخافون من هذه، قدمي المفقودة، أليس عجيبًا أن يخاف الإنسان من شيء غير موجود؟».

كانت ثومة تستغرق وقتًا طويلًا لتتمكن من استيعاب كلماته، قالت فيما هو منتظر ردها: «ربنا يشفيك يا عم».

لم تزد في الحديث، جرَّت عربة آدم، عادت إلى غرفتها وهي تفكر في شيء واحد، أن الابتلاءات موزعة على جميع البشر بنِسَب متساوية، لكن إحساسهم بها غير متساوٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٤

تعاقبت الصباحات، ومهلة السكن المجاني أوشكت على الانتهاء، قررت الذهاب إلى أقرب سوق لشراء الطعام، مرت على جارها القعيد لتسأله هل يحتاج شيئًا تجلبه له، سمعت حك العجلات في باب غرفته قبل أن يفتح، خرج إليها وشعيرات طويلة هشة مثل خيوط عنكبوت تتدلى من جمجمته، لم يملك وقتًا لكبس الزعبوط القطن في رأسه، أخذ يصفف شعره بيده أي كلام، لكنه رغم محاولات الهندمة بدا هائشًا ومضحكًا، فتح عينيه على اتساعهما، فبدت مثل خرزتين مرسومتين فوق جلد وجهه، تأمل عربتها الخشبية وابنها الراقد فوق القش كأفراخ العصافير.

«كيف يمكن أن أناديك يا عم؟».

تساقط الكلام من فمه وهو يقول لها بنبرة أبوية دافئة: «اسمي سعد، أنا أقدم ساكن في عرب الحصن، يقول لي صاحب البيت: لقد وضعوك أولا في هذه المنطقة، ثم بنوها فوقك».

يقهقه بصوت عالٍ، يهتز جسده كله كتلة واحدة، كأن صدره مُبطَّن بالجبس، ثم يُكمل: «هل تعلمين أن صاحب البيت كان مُحقًّا، فقد مضى على وجودي في هذا العالم وقت طويل، ومن يعش كثيرًا يعش وحيدًا».

فقالت ثومة:

«لا يهم يا عم، فالإنسان غالبًا يكون وحيدًا في هذا العالم، لأن الإنسان صغير والعالم كبير».

ثم انتظرت برهة قبل أن تُضيف:

«لكن ربنا أكبر من العالم كله».

كانت ملامحها جادة أكثر من اللازم وهي تستمع إليه، فسألها الجار: «هل هذا ابنك؟».

هزت رأسها دون أن تتكلم، فتأمل ملاءة بيضاء وضعتها فوق ركبتيه.

«هل يعاني من فقدان ساقه مثلي؟».

ملَّست على رأس آدم أولًا ثم قالت: «لا، هو خلقة ربنا».

فتأمل العجوز العربة من فوق لتحت.

«صنعتيها أنتِ، أليس كذلك؟».

نظرت إليه بزهو:

«من الذي قال لك؟».

جلجلت ضحكته واهتز صندوق الجبس في صدره: «لا أحتاج ليخبرني أحد، فلن يغامر نجار بسمعته ليصنع شيئًا كهذا».

عندما طلب سعد من ثومة أن تُعرفه بنفسها صمتتْ طويلًا، كانت تخشى أن تحكي قصتها بشكل مُحرَّف، فتجنبت الخوض في التفاصيل، قالت وهي تنظر لآدم: «أخبرني جدي الذي لم أره إلا مرة واحدة أن أبي يحتضر، وأخبرني زوج أمي أنني يتيمة، وأخبرتني بغلة زوجي أنه مات، وآدم ابني الوحيد، هذه هي حياتي».

كانت تتكلم وهي ساهمة، مثلما يتذكر الإنسان حلمًا فور استيقاظه، وسعد ينظر إليها نظرات طويلة متأملة، كأنه يستكشف في ملامحها فضولًا ما في خاليه.

أعادت سؤالها عليه مرة أخرى:

«هل تحتاج شيئًا أجلبه لك من السوق يا عم؟».

هز رأسه بالنفي وهو يحشو قدمه الرمادية الوحيدة في جورب ضيق كما يُحشى السجق، لفَّ عجلة الكرسي حتى وصل إلى شعاع شمس يتسلل من فتحة في السقف، مد رأسه للأمام فلمعت صلعته داخل دائرة الضوء، نظر لأعلى طويلًا كمن ينتظر حدوث شيء، أو كأن خطة ما بدأتْ ترتسم في ذهنه.

عندما اقترح عليها أن تترك معه آدم رفضتْ، قالت إنها ستشتري له بعض الملابس.

عادت من مشوارها، وقبل أن تدخل حجرتها دقت باب غرفة جارها الشيخ، عندما فتح مدت يدها بكيس بُن صغير: «خُذ، لا تشرب قهوة بيضاء بعد اليوم».

أرخت فوهة كيس كان في يدها وأخرجت منه مشطًا كبيرًا: «وخُذ هذا أيضًا، سرح به شعرك، ثم ضع فوقه طاقيتك قبل أن تنام، سيصبح شكلك أجمل يا عم».

دخلت غرفتها ثم خرجت بعد قليل ويدها معفَّرة بالدقيق، سخنت الزيت في الطاسة، تقرفصت وقَلَت بعض الحلوى ثم غمستها في السكر، مدت يدها بطبق لسعد: «أريد أن أشتغل يا عم».

فقال وهو يدس أنفه في الطبق ويتناول واحدة: «عمل، لكِ أنتِ؟».

فأكدتْ:

«نعم، عمل لي».

فقال:

«غريب والله هذا الزمان، ألا تصرفين معاشًا من أي جهة؟».

فقالت ثومة:

«لا».

رد عليها:

«أنا أعرف ناس يتقاضون مرتبات كبيرة دون أن يُحركوا إصبعًا، على العموم دعيني أمخمخ».

لم تسأله لماذا يعيش بمفرده أو ما هو سبب فقدان ساقه، أصبحت تقدم له مما تطبخ، حتى ولو بطاطس مسلوقة بالماء والملح، وهو بدوره حكى لها ما تيسر عن نشأة هذه المنطقة التي كانت زراعية ذات يوم، وأقسم لها إن متر الأرض سيقفز خلال سنوات قليلة من خمسة جنيهات إلى عشرين جنيها، حدثها عن مصانع الصيني والزجاج والقيشاني التي أقيمت على بُعد شارعين وحتى طريق مُسطرد، كما أخبرها بمشاعل استكشاف البترول خلف مزارع البرتقال، وزيادة حفارات البحث عن آثار فرعونية في طريق المسلة القريب، قال لها إن الدنيا تتغير بشكل أسرع من كل التوقعات، وإنه بالكاد كان يمكنه رؤية سيارة تسير في الشارع، أما الآن فالسيارات أكثر من البشر، ولذلك يصنعون لها الكباري والأنفاق، وشارعهم سيدخل قريبًا في خطة السفلتة، سيصبح طريقًا عموميًّا يُزمِّر فيه أصحاب الأوتومبيلات.

حكى لها كثيرًا عن بدايات عرب الحصن، الموضوع الذي يحبه والسيرة التي لا يمل منها، كان الكلام أكبر من استيعابها، فثومة منشغلة في كيفية تدبير الوجبة القادمة، لا يستطيع مخها الربط بين الأشياء وتفسيرها، الدنيا في تصورها مجزأة إلى قطع صغيرة جدًّا، تشاهد ما يحدث حولها كأنه مجرد تسالي، وعندما تنتهي التسالي ستموت، هذا كل ما في الأمر.

لا تريد رغم كل شيء تبديد ثمن الإسورة قبل أن تعثر على عمل، تملكتها الحيرة عندما ذهبت إلى محل البقالة ورأت الأرفف مكدسة بالمعلبات والبرطمانات والمنتجات المغلفة، خلقت الأرفف لديها حاجة لم تكن موجودة من قبل، وبدأت تشعر أن مواهبها القديمة في الفصال لن تنفع في الدكاكين الجديدة، فكل شيء مطبوع عليه سعره، وسعد بدوره علمها أن تقرأ تواريخ الإنتاج ومدة الصلاحية، قال لها إن تلك الأرقام تعني حياتها، استغرقتْ وقتًا طويلًا حتى تفكر في ذلك الأمر، فطوال عمرها تعرف أن حياتها بيد الله، ولم تفكر يومًا أنها ستصبح بيد الأرقام المطبوعة فوق علبة صفيح.

ذات صباح، وبينما كانت تحمم آدم في نصف برميل مشقوق اقترب سعد فوق كرسيه المتحرك من باب غرفتها وقال: «عثرت لكِ على شُغل».

عملت له كوباية شاي سكر زيادة كما يحبها، وجلست فوق كرسي خشب قصير تنتظر أن يُكمل كلامه، ويشرح لها طريقة التحاقها بالوظيفة الجديدة، فسألها عن الأشياء التي تجيدها، ومن خلال ردودها تبين له أنها لا تجيد شيئًا يمكن أن يتحول إلى نقود إلا عافيتها، قالت له: «لم أفكر في العمل إلا عندما احتاج ابني للطعام، لقد عملت لسنوات طويلة مقابل الطعام، لم آخذ في يدي نقودًا، فلم أكن أحتاج إليها، أما الآن فيجب عليَّ أن أعمل، وإلا سيطردني صاحب الغرفة وأموت من الجوع أنا والولد».

فرد عليها سعد:

«عصرت مخي حتى عثرت لكِ على هذا».

مد يده بكارت، وقال:

«مصنع زجاج لا يبتعد عن هنا كثيرًا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٥

في ساحة مُظللة بالقرميد والصاج المتعرج بدأت ثومة ممارسة عملها الجديد، مصنع كبير للزجاج على بُعد كيلو متر من غرفتها، في صباحات الأيام الأولى كانت تُنزل حمولة سيارات النقل من القش وألوان الصباغة ورُزم ورق الجرائد القديمة، وآخر النهار تُحمِّل سيارات النقل نفسها بالأكواب والأطباق التي تنتظر البيع في الدكاكين والأسواق، كانت تصطحب معها آدم كل صباح، تلقي في عربته الخشبية المتهالكة شريحة خبز مطلية بالجبن أو حبة فاكهة حسب الموسم، في اليوم الأول قال لها مشرف الإنتاج إن اصطحاب الأبناء في مقر العمل ممنوع، فقالت: «سامحنى يا عم، لا ينفع أن أترك كَسِيحين في مكان واحد».

بعد أخذ كثير وَرَدّ سمح لها بتركه مع رجل الأمن، فأصبح مكان آدم كل صباح تحت شجرة كافور صغيرة قرب البوابة.

عندما لحظ المشرف اهتمامها بأمور النظافة اقترح عليها أن تعمل لوقت إضافي، فقد أزالت من مدخل المصنع أغراضًا لا ضرورة لها وزرعت بجوار السور أحواضًا كثيرة، في كل حوض شجرة، كانت تُنجز أعمال البستنة بخبرة اكتسبتها من سنوات الحُفرة، ، تعزق الأرض حول سور المصنع وترمي البذور، تنقي الحشائش الضارة وتُعبئها في شيكارة.

«شاطرة يا ثومة».

يقول لها المشرف، تستقيم وتمسح عرقها بكُمها:

«لو عندك كتاكيت وأرانب سأربيهم أيضًا».

في الوقت نفسه كانت تنجز لف الأطباق بالقش، أو دس ورق الجرائد في الأكواب عندما يُطلب منها ذلك.

سيارات النقل تحمل كل يوم زجاجًا يكفي مدينة، لم تحسب ثومة كم قطعة تخرج من تحت يدها إلى صناديق اللوريات، ولا عدد النساء العاملات في المصنع. اعتادت تجاوز أي شيء له علاقة بالعدد، فدائمًا كل حسابات وراءها حسابات أكبر، حتى إنها لم تسأل كم ستتقاضى في نهاية الشهر.

بعد تجربة ساعات العمل الطويلة بدأت تفكر، أن المصنع لا يخرج منه العاملون إلا للنوم فقط، ثم يعود الرجال والنساء للعمل نفسه في اليوم التالي، ونظير ذلك يتقاضون أجرًا لا يجعلهم أغنياء، بل ليأكلوا ويشربوا فقط، ما يجعلهم يستمرون على قيد الحياة ليستطيعوا المجيء للعمل مرة أخرى، وذلك يعني أن حياتها كلها مُعرضة للنهب من أجل الأكل والشرب، وتذكرت

السنوات الطويلة التي رزقها الله فيها فأكلت وشربت وتأملت النجوم، لكنها لم تكن تعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم، بل لم تكن تعمل أصلًا إذا قارنت المصنع بالحُفرة.

لمحها سعد وهي عائدة، ملابسها مطلية بمادة حمراء، ضيَّق عينيه وتأملها تحت الكلوب شحيح الإضاءة: «ما كل هذا الدم؟».

ابتسمت ثومة كأنها انتصرت في جولة ما:

«دم! هذه بودرة لتلوين الزجاج يا عم سعد».

لا يترك اللون الأحمر ملابسها إلا حين تنقعها في الماء ليلة كاملة، فكانتْ دائمًا تنشر جلابية، وتذهب إلى المصنع بواحدة أخرى.

أثناء عودتها ذات مساء انكسرت عَجلة عربة آدم وفقدتْ لوح خشب، أهلكها المشوار إلى المصنع لثلاثة أيام متواصلة، فاشترت «براويطة» بسعر مناسب من بائع روبابيكيا؛ عربة حديدية بديلة، لها يدان قويتان وتقف على عجلة كاوتش تُسهِّل حركتها، مزودة بزاوية حديد على شكل سنَّادة لزوم الاستراحة، عندما عادت إلى غرفتها ركنت العربة القديمة في الطرقة الفاصلة بين غرفتها وغرفة سعد، دقت خطافًا وثبتته بالأسمنت، وربطت جنزيرًا وقفلًا للعربة الحديدية البديلة.

أصبح منظر ثومة مألوفًا لجميع سكان عرب الحصن، أثناء ذهابها يراها الجنود فجرًا وهم في طريقهم إلى وحداتهم العسكرية، وآخر النهار يتابعها العجائز فوق مصاطب الأسمنت أثناء عودتها.

وبدأت تصدق ما يقوله جارها العجوز كأمر بديهي مفروغ منه، فخلال أشهر فقط وليس سنوات زادت الأرض أضعاف ثمنها، تمهدت الطرق ووضعت الأساسات للكباري وتضاعف عدد السكان، أصبح من الصعب التكهن بما ستصير إليه غدًا أسعار البطاطس أو الملابس أو تذاكر الأتوبيس، وفي المصنع يرفضون زيادة الأجر، لكنهم يسمحون فقط بزيادة عدد ساعات العمل لمن يريد وضع اسمه في دفتر الحوافز.

كل شيء حول صاحبتنا تضاعف عدده، حتى إن سيارات النقل التي كانت تحمل إنتاج مصنع الزجاج أصبحت سربًا من اللوريات المزودة بمقطورة، والمصنع نفسه تضاعفت أرضه وعدد ماكيناته، المشرفون وعمال النظافة والتعتيق وعاملات اللف بالقش وورق الجرائد يتبدلون باستمرار، كل شيء يتوسع بشكل خارج عن السيطرة.

عندما أضاف صاحب المصنع قسمًا للنجف والكريستال امتدت ساعات العمل أكثر، فأصبحوا يغلقون عليهم بوابات المصنع كما تغلق الأقفاص على

الحيوانات، وعندما تنتهي حصص العاملات في تخزين القش وحِزم الجرائد، يطلب منهن المشرف تعبئة الكَسْر أو تنظيف المراحيض، فتقول ثومة لنفسها وهي تغتسل وتخلع ملابس الشغل آخر كل نهار، لم أعد أحتاج إلا أن يتيحوا لي حفرة أخرى، أزرع حولها المحاصيل وأربي الطيور، أنام وقتما أريد وأصحو عندما أشاء.

أثناء الاستراحة أسرَّتْ لها إحدى العاملات بسر، قالت إن داخل المصنع قسم اسمه الفرن، تعمل به بعض النساء الأكثر دراية ببواطن الأمور، فعدد ساعات العمل أقل، والمرتب في الفرن ثلاثة أضعاف ما يتقاضينه من لف الزجاج وتحميله.

في صباح اليوم التالي اصطحبتها زميلتها قبل وصول الشاحنات لتفرجها على الفرن عن قرب، عبرتْ ثومة بساطًا أبيض له مقبض كبير كالبوابة، يجذبه أربعة رجال أشداء ليتمكنوا من فتحه، لمحت الحمم بالداخل وهي تغلي، وقالت في نفسها، لا بد أن الجحيم شيء كهذا. كانت النيران تهدر كالنافورة، فخرجتْ إلى عملها المعتاد وأقبلتْ عليه بهمة كبيرة بعد أن رأت النار السائلة وهي تفور، أفرغت صناديق المواد الخام التي توضع على الرمال قبل تسييحها، رصَّت تلال القش وربطت حِزم الجرائد، لمعت حصتها من الكريستال، حتى تنظيف المراحيض، لم تعد تشعر بأنه عمل كريه، انصرفت لتغيير ملابسها بنشاط يفوق كل الأيام السابقة.

وعادت تفكر في المكاسب التي يمكن أن تجنيها إذا التحقت بفريق العاملات في الفرن، لمعت الفكرة في رأسها حتى إنها استبعدت المخاطر مؤقتًا، فقد بدأت تشعر بخشونة في ركبتيها وألم في ظهرها بسبب طول ساعات الشيل والحط، وقد عيَّنوا مؤخرًا مشرفًا جديدًا للكريستال اعترض على وجود آدم خلال ساعات العمل، وقال لها: «هذا مصنع وليس دارًا للرعاية الاجتماعية».

طلبت من سعد أن تترك ابنها معه أثناء فترة عملها، وشددت عليه: «والنبي تأخذ بالك منه، أنت عارف الظروف».

فكان يضحك منها ويقول:

«الله وحده يعلم مَن منَّا الذي سيرعى الآخر».

ثم يتأمل اللون الأحمر في ملابسها:

«ما كل هذا الدم يا ثومة؟».

تقترب منه:

«قلت لك مائة مرة، هذا ليس دمًا، إنها بودرة يا عم سعد، بودرة حمراء لتلوين الزجاج».

رفع سعد رأسه عاليًا وخرج منه صوت لا إرادي:

«أها، بودرة».

ثم دفع براويطة آدم أمامه بصعوبة حتى تمكن من إدخالها حجرته.

لكن هذا التنازل لم يكفِ المشرف، فقد وقف فوق حجر ذات صباح وأفرغ في العاملات شحنة غضبه، كان يتلذذ بإرعابهن من المستقبل وتخويفهن على المكاسب والامتيازات التي ينعمن بها.

«نحن نعمل جميعًا في هذا المصنع ونريده أن يكون الأول دائمًا، والمتكاسل لا مكان له، فهنا ليست مزرعة لتسمين العجول».

خرجت ثومة خطوة عن الصف، أخذتها العزَّة وعلا صوتها للمرة الأولى منذ مجيئها: «هذا مصنع يا عم وليس سجنًا».

مع استمراره في الكلام تصاعد غضبه، قال إنه مصمم على عِقابها، اقترب منها خطوة وهو يحمل دفترًا، فتحه وشطب شيئًا ثم قال: «يومكِ مخصوم كله».

خرجتْ من البوابة وهي عازمة على ألا تعود إلى هذا المكان مرة أخرى، تحركت زميلة لها خلفها خطوتين، عندما زغر المشرف للعاملة من فوق نظارته عادت إلى الصف وهي تنظر في الأرض.

اتخذت صاحبتنا القرار بسرعة على غير عادتها، فقد كانت الأفكار عادة تطرق رأسها بشكل تدريجي مثلما ينمو النبات.

لكن المشرف لم يتركها تخرج بهذه السهولة للحفاظ على هيبته، أشار لرَجُلَي أمن، يأتونه بها مسرعين، وبالفعل، أمسكا بها قبل أن تخرج من البوابة، رفعاها عاليًا فأخذتْ تتلوى بين أياديهم كالسمكة حين تخرج من البحر، لم يتمكنَا منها، بسرعة فائقة لكمتْ واحدًا بكوعها فرماها الحارس الآخر عن كتفه قبل أن يتلقى لكمة مماثلة، شُجَّ رأسها، فالأرض مفروشة بكسر زجاج كالدبابيس، لا يُرى، قصدت البوابة الحديدية بعد أن ابتعد عنها الجميع، فتحتها بطول ذراعها، التفتتْ خلفها فابتعد المُشرف خطوة، أخذ يتأمل وجهها في صمت والدماء تنقط من صدغها فوق ملابسها.

عادتْ إلى البيت بعد أن غسلت وجهها في الطريق، عندما لمحها سعد ضحك وقال: «ما كل هذه البودرة يا ثومة؟».

فرفعت وجهها وثبتتْ نظرها على ابنها وقالت:

«هذه ليستْ بودرة يا عم سعد، إنه دم».

بعد أن تركت العمل حاولت في ليلتها الأولى أن تفعل شيئًا جديدًا، أعادت تصنيع جلابية قديمة فحوّلتها إلى كسوة تغطي بها آدم، أخذت تنشد له وهي تسلق دجاجة، عندما اكتمل طهيها دسَّتْ رقبتها وجناحيها في طبق أرز وأعطته لجارها الشيخ.

لاحظتْ أن ملابسها أصبحت فضفاضة أكثر من اللازم، وأن عروقًا زرقاء بدأت تنفر من ظهر يدها.

قضت تلك الليلة في غفوات متقطعة وآدم في حضنها، نامت متقرفصة مثل جنين، يد تحت رأسها والأخرى تضم رأس ابنها، أخذت تحسب عدد القطع الزجاجية المتنوعة التي خرجت من تحت يدها، كانت تغلفها بالواحدة وتدفنها في القش، وأحيانًا تساعد الرجال في تحميلها فوق المقطورات، بمتوسط خمسمائة قطعة منذ مطلع الشمس وحتى انتهاء مواعيد العمل، آلاف القطع كل شهر، فكرت، كم كسب صاحب المصنع من عملها وحدها خلال شهر فقط؟

وقبل أن تصل للحسبة الصحيحة راحت في غفوة طويلة.

في مساء اليوم التالي طلب منها سعد أن تُخرج المنضدة وتضع فوقها صندوقًا ثقيلًا، كانت المرة الأولى التي ترى فيها ثومة شاشة تلفزيون، الصور تتحرك أمامها وسعد يتابع رد فعلها، بعد أقل من نصف ساعة طلبت منه إغلاق الصندوق، فاقترب بكرسيه وأغلقه، ثم التفت إليها: «ألم يعجبك التلفزيون؟ يبيع الناس أرضهم ليشتروه، وأنا عملت جمعية وجبته مستعمل، لا تحملي الهمّ هكذا بشكل دائم، فكثرة الحزن تجعل الإنسان سيئًا».

أشاحت بيدها وكأن هذا الكلام لا يعني شيئًا بالنسبة لها، قالت لجارها المُسن: «مالي أنا والحروب والمشكلات التي تملأ الدنيا في صندوقك؟».

فقال سعد:

«المشكلات دائمًا قريبة من الفقراء وحدهم، فربما يصدرون قرارًا غدًا بمنع التجول، ها، تجول! لقد نسيتُ هذه الكلمة، لكن ذلك يعني أن البيوت ستزدحم بساكنيها، لم يعد لديَّ أي تسالٍ إلا التلفزيون، أشعر معه أنني أشارك فيما يحدث حتى ولو من مقعد المتفرج، أخشى أن أصبح عديم الفائدة تمامًا، وكما تعلمين، سيموت من لا يريده أحد».

سرحت ثومة منه، لم تكن معنية بالأشخاص الذين يتحركون ويكلم بعضهم بعضًا في الصندوق، كانت ترى أن كل ذلك عَقَبة تُصعِّب عليها استيعاب ما يدور حولها، وأنها تستطيع القبض على العالم بالفعل لولا أنها تصادف كل يوم المزيد من العقبات.

تذكرتْ ما حدث صباح الأمس، كان الشارعُ يزدحم ببعض المُحتجِّين على زيادة الأسعار، أخرجوا الأجولة وسِلَع البقالة وألقوا بها في عرض الطريق، رأتهم ثومة من شبَّاكها وهم ثائرون، لم تفهم أي شيء من هتافاتهم الغاضبة، لم تسأل سعد عن سبب هذه الجلبة، فكل يوم تقع آلاف الأحداث التي لا تعنيها، تكاسلت عن السؤال، فما الفائدة من أسئلتها ما دامت لن تفهم الإجابات.

بعد قليل، وتحديدًا بعد الظهر، رأت ثومة سيارات محترقة ينتشر دخانها مثل سحابة تغطي نصف الشارع، وقبل الغروب بقليل رأت رجال بوليس ينتشرون وينشرون الرعب بين الناس، يُعلقون فوق خواصرهم الطبنجات، أمر رجل منهم جميع السكان بعدم الخروج من منازلهم، اعترضتِ امرأة، قالت للشاويش: «من حقي أن أشتري الدواء لابني من الصيدلية»، سحب الشاويش طبنجته من جنبه وشد أجزاءها للخلف، رفع ذراعه رأسيًّا مثل عمود وضرب طلقة في الهواء قائلًا: «رصاصة بين الحاجبين لمَن يخالف التعليمات، هكذا الأوامر». دخلت المرأة واختفى صوتها للأبد، لم تعد تتكلم عن حقها في الذهاب إلى الصيدلية!

أخرجها صوت سعد من سرحانها:

«كلما مرت السنوات تضاعفت الأسعار وازدحمت المواصلات وأصيب الناس بكل أنواع السُّعار».

تراجعتْ عن كتم الأسئلة في جوفها وقالت:

«ولماذا يحدث كل ذلك يا عم سعد؟».

خاض جارها المُسن في قضايا بدت لها مثل لوغاريتم مُعقد مكتوب بلغة أجنبية، حدثها عن الشيوعيين والديمقراطية والمياه الإقليمية وحروب البترول، ثم عرج على حركة التجارة العالمية وعدد سكان الصين ودول عدم الانحياز، حفَّزته استجابتُها البطيئة على شرح المزيد، حدثها عن الحياة المنتظرة في مستقبل البشر: الغسالة والآلة الحاسبة، وقَفْز الإنسان إلى القمر، سيارة لكل مواطن ووظائف يتحكم فيها الكمبيوتر... كانت بعضها معلومات استقاها من الرسائل العلمية التي ينسخها للطلبة على الآلة الكاتبة، والبعض الآخر من التلفزيون وأحاديث الجيران.

لم تكن ثومة تُصدقه؛ إذ كيف يمكن أن يصعد إنسان ويقف فوق القمر كأنه سطح بيت؟! في البداية؛ كانت تنصت له باهتمام، ثم تبهتُ الصور فجأة في رأسها، لا تقوى على الاستمرار في تصور ما يقول، بدت أمامه كعصفور يتحيَّن اللحظة المناسبة للطيران والتحليق، دون تأنيب ضمير في أن شيئًا مهمًّا قد فاته، كان الوهم يغلف تفكيرها مثل فقاعة تمنعها وتحميها، فدائمًا تسمع أصواتا تتخيلها حوريات البحر تغني، وترى أضواء بارقة كعروق اللؤلؤ تظهر وتختفي، وتشم روائح لا تعرف لها أسماء. كانت تزِنُ كل الأشياء تبعًا لقوانينها الخاصة.

نظرتْ إليه نظرة متحجرة وقالت:

«أنا لا أفهم كلامك، فالتركيز في مثل هذه الأشياء يفسد عليَّ حياتي».

لم يجد كلامًا يرد به عليها، ابتسم ورفع حاجبيه، مد يده خلف كرسيه وأخرج حجرًا مكببًا في حجم كفه، سألته ثومه: «ما هذا؟».

أخذ ينزل به في كفه ويصعد، كأنه يختبر وزنه.

«نيزك».

كانت الكلمات المحفورة في ذاكرتها قليلة، لا تصلح لتداول جميع الموضوعات، سألتْه وهي تحاول نُطق الكلمة كما سمعتها: «نيزك! وما النيزك هذا؟».

«أعطاني إياه طالب نسخت له رسالته ولم يدفع، فمنحني أجري قطعة من نيزك، قال إنه حجر انفصل عن كوكب صغير كان يحوم حول الأرض».

كان الحجر مليئًا بثقوب غير منتظمة مثل فشة بقرة.

رفعتْ ثومة رأسها لأعلى كأنها تراقب شيئًا في السماء، ضيَّقتْ عينيها على ما في يده وقالت: «وهل صدقته؟».

أعاد الحجر إلى وضعه القديم وتحرك بالكرسي للأمام قليلًا:

«لم أصدقه، ولم أكذبه! هناك أشياء الفصل فيها ليس سهلًا يا ثومة، فالحياة ليست رسمة هندسية».

كلما حاولتْ أن تفهم كلمة كان يلاحقها بأخرى تُصعِّب عليها الوصول للمعنى المطلوب، لا تود انتزاع تقدير من أحد إن هي تعلَّمت الردود المناسبة، تُفضل السرحان على ممارسة أي نشاط ذهني، شوائب الصمت الطويل في سنوات الحفرة ترسبت في رأسها، فكان استحضار الكلمات المناسبة يشبه هضبة مرتفعة من الصعب دائمًا الوصول إليها.

قالت مدفوعة للتفكير فيما يشغلها فقط:

«لا يهمني الآن إلا البحث عن دخل جديد، فقد تركت العمل بالمصنع».

صمت سعد برهة، ثم قال جملة اعتبرها اكتشافًا:

«إن كان على الفلوس فأمرها بسيط، ما دامت خديوية العجوز موجودة ولديكِ ذهب فلا توجد مشكلة».

في صباح اليوم التالي وصف سعد لها بيت «خديوية» على بُعد شارعين، قال إنها ستُقرضها ما تحتاجه مقابل أي مصوغات ذهبية، ثم تسترد مقتنياتها وتدفع مبلغًا أكبر قليلًا من الذي أخذتْه، وعلى عكس ما شرحه سعد لها، لم تجد ثومة المرأة عجوزًا، لكنها كانت شابة جميلة وسمراء، تضع في شفتها صحن فنجان من النحاس الداكن، وأنفها مثقوب بطوق كالغويشة، عندما سألتْها عن خديوية قالت: «أنا خديوية».

بعد التبحبح معها في الكلام عرفتْ أن خديوية لقب وليس اسمًا، نسبة إلى امرأة عملت في هذه المهنة منذ بداية القرن، وهذه البنت هي حفيدتها، ضحكت في وجهها وقالت: «أمي خديوية، وأنا أيضًا، وستصبح ابنتي كذلك خديوية، ما هي طلباتك يا ست الكُل؟».

فقالت:

«فلوس لمدة شهر، فقد تركتُ العمل في مصنع الزجاج، وقد كنتُ...».

قاطعتْها الشابة:

«القرش صاغ يُرَد وفوقه قرش تعريفة».

لم تفهم، فأعادت خديوية كلامها بطريقة أخرى:

«تأخذين العشرة وتعيدينها إليَّ بعد شهر خمسة عشر، اتفقنا؟».

شعرت ثومة أنها تذوب في دوامة مليئة بالأرقام، وأن هذه الحسابات الكثيرة منعت مستقبلها الحقيقي أن يأتي، لقد وَجَبَ عليها التعهد بأشياء لا تعرف طبيعتها، لا تفهمها، فالتوقيع على أوراق يمكن أن يتسبب في سجنها، ستأخذ منها مبلغًا تافهًا مقابل خسارة راحتها، وشعرتْ أن معنى الحياة يتفتت بسبب مثل هذه الحسابات الغامضة، فقالت للمرأة الشابة: «أشوف وأرد عليكِ».

خرجتْ من بيت خديوية وهي تفكر: «أين الطريق الذي أتيتُ منه؟».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

١٦

عندما عادت لم تكن على يقين بأنها تستطيع توصيل ما تريده بالفعل، تعلقت الكلمات على طرف لسانها، لمحتْ سعد جالسًا أمام التلفزيون، مندمجًا في مشاهدة فيلم، وآدم يمط رقبته من عربته الصغيرة ويتابع معه الصور المتحركة، قبل أن تفتح معه أي موضوع قال لها: «يُعجب الناس أكثر بدور الشرير».

لم ترد، فالتفت إليها وأكمل:

«كم تمنيت أن أقوم بلعب هذا الدور، لديَّ قلب يصلح له، ولكنه يحتاج إلى إمكانيات أخرى لا أملكها».

لم ترد أيضًا لأنها لا تفهم كلامه، فقال: «أنا لا أفتقد الجرأة، بل القدرة».

سحبته ثومة من أوهامه التلفزيونية عندما قالت له: «لن آخذ الفلوس من هذه المرأة».

أبعد سعد رأسه من أمام التلفزيون، ضيَّق عينيه وقال: «أنتِ تعرفين يا ثومة، العين بصيرة واليد قصيرة».

هزت رأسها وهي سارحة وقالت:

أعرف يا عم سعد، أعرف».

فرفع حاجبيه ومط شفتيه وقال:

«المسجد الكبير في المسلة يخصص دخلًا لمن يعجزون عن الإنفاق على أنفسهم».

في اليوم التالي ذهبتْ بالفعل تسأل، فقالوا لها إنهم سيرسلون مندوبًا يعاين حالتها على الطبيعة بعد أسبوعين، عادت تحسب الأيام وتنتظر المندوب، لكن أحدًا لم يأتِ.

حدثها سعد ذات مساء آخر، قال لها:

«هناك اقتراح لكنه ربما لن يعجبكِ، الكنيسة أيضًا لديها إمكانية الدفع للمحتاجين».

نظرت إليه ثومة ولم ترد.

في تكتم شديد، ودون أن تخبره، ذهبت إلى كنيسة مارجرجس بمسطرد، رحب بها المندوب وهو يُنزل حوامل الإنجيل من صندوق سيارة، قال لها

كلمات شبيهة: «سنعاين الحالة خلال أربعة عشر يومًا، وإن استُحقت المنحة فلن تتردد الكنيسة في مساعدتك».

مرت الأربعة عشر يومًا وفوقهم أسبوع، دون أن يطرق غرفتها أحد، فقررت أنها ستعود إلى المصنع ويحدث ما يحدث، ستلتزم بأوامر أي مُشرف يحمل دفترًا.

استيقظت على صوت آدم، وَثَبَتْ من فراشها والغطاء في يدها، كانت قد غفت ونسيت نقله من البراويطة إلى فرشته، أخرجت من كيس السوق بعض حبات عنب وأطعمته واحدة بعد أخرى، كانت تشق الحبة بظفرها وتُخرج منها البذر أولًا ثم تدسها في فمه، داعبته ونطقت أمامه ببعض الكلمات، لكنه لم يستجب لها وظل مبتسمًا طوال التهام الوجبة الخفيفة.

«الطير لا يطير بجناحيه ولكن بقدرة الله».

صوت الراديو يتسلل في جوف الليل من الخارج.

التفتت ثومة تبحث في كيس السوق عن شيء آخر يمكن أن يؤكل، فسمعت جلبة آتية من الشارع قبل أن تعثر يدها على الكيس، تعالت الأصوات بتسارع لا يناسب اقتراب الفجر، ارتفعت معارك كلامية بين نبرات لا تعرف أصحابها، انتهت بصوت طلقات متتابعة، ثم هدأ كل شيء مرة واحدة، غابت الأصوات في عمق الليل واختفى كل الكلام، بعد دقائق سمعت طرقًا على باب غرفتها فخمَّنتْ أنه جارها الشيخ، فتحت له بعد أن لفَّتْ صدرها بقماشة.

دخل مسرعًا بكرسيه حتى وصل إلى الشباك المطل على الشارع، استند إلى الجدار بكلتا يديه ليستطيع التوازن على قدم واحدة، دفع الشيش بقبضته وثبت عينه على نقطة معينة لم يحِد عنها، كأنه يراقب مركبا يبتعد ببطء، تأملته ثومة بمنظره البائس، سُترته التي نسى أن يُزرّرها، عينه الصغيرة نصف المنطفئة، ملامحه التي تحمل دهشة المُسنين الدائمة، عاود النظر مرة أخرى إلى النقطة نفسها، ثم أطلق صيحة كزمجرة كلب عجوز غاضب، لكنه لا يستطيع النباح: «قتلوا صاحب المزرعة والبيت يا ثومة».

تذكرتْ ثومة في لمحة الرجال الذين نزلوا الأرض بطابور السيارات، عندما رفع عليهم صاحب المزرعة مسدسه وأطلق رصاصتين في الهواء، يبدو أنهم لم ينسوا له ذلك التهديد، قالت لسعد: «ولماذا فعلوا ذلك؟».

ارتعشت يده وهي تحرك عجلتي الكرسي في جميع الاتجاهات دون قرار محدد.

«ليس هذا هو ما أفكر به، أنا منشغل بوجودنا في البيت».

سرقت نظرة لآدم وقالتْ:

«ما له وجودنا في البيت يا عم؟».

فقال:

«أخشى أن يطردنا ورثته، ثلاثة شباب فاسدون أعرفهم منذ أن وُلدوا، رغم ثروة أبيهم الكبيرة فكل ما يعرفونه هو بيع ما تطاله أياديهم والإنفاق منه على مزاجهم».

ردت ثومة وهي تحاول استيعاب الكلام:

«ولماذا يطردوننا ما دمنا ندفع الأجرة؟».

لف سعد بالكرسي، قال وهو يوجهه نحو غرفته: «لأنهم لا بد سيحتاجون الأرض لشيء أكبر من الأجرة، هم لا يريدون بيضة كل يوم، وإنما يخططون لذبح الدجاجة».

صرفتْ ثومة من عمرها سنوات وسنوات لتفهم تصرفات البشر، ذهبت السنوات وظلَّتْ عاجزة عن فهم شيء، كأنها كانت غافلة طوال هذا العمر لا ترى إلا موطئ قدميها، تفتَّحتْ عينها دفعة واحدة على سيارات تجوب الشوارع مثل الذباب، ومصانع يجب على الإنسان أن يعمل بها طوال فترة صحيانه، وقطارًا يمكنه تبديل ما في نفوس البشر من مشاعر بسبب انتقال الناس من حال إلى حال، كل ما تحتاج إليه خاضع لسلطة النقود، وإذا لم تلتزم بقوانين المصنع وأنظمة الدفع فستموت من الجوع.

عادت إلى آدم تكمل نزع البذر عن حبات العنب وتلقمها في فمه، كانت ترى أن ذلك أهم من الحديث في تلك الموضوعات المعقدة.

تبصصت من الشيش فرأت جثة صاحب المزرعة ملقاة فوق الأرض لا تزال، فقد أطلقوا عليه النار بكثافة، استحال جسده إلى غربال، حتى رأسه لم يسلم من الغربلة، لم يجرؤ أحد على لمسه قبل حضور رجال البوليس والنيابة. ألصقت وجهها بالشيش وهي لا تصدق ما تراه، رأت المسعفين يحملونه فوق النقالة، لم يبق منه إلا بقعة دم كبيرة ومتجلطة كالقار، حولها أسراب ذباب تلزق في الأرض.

بدأ الشك يساور ثومة في كل شيء يحدث من حولها، تركت عملها مرغمة لأنها فقط تجرأت على السؤال، فبات رجوعها إلى المصنع مستحيلًا، أغلب النساء في المنطقة يعملن مرضعات لتوفير مصدر رزق يكفي صغارهن، فقد ترك أزواجهن زراعة الأرض وتوجهوا للعمل في المصانع، ومنهم من عبر البحر بالبواخر ونسي أن يعود.

تنازلت صاحبتنا عن أحلامها بأن القادم أفضل، فعاودت التفكير في الرجوع إلى المصنع «يا رب يوافقوا» قالت لنفسها، إنها تحتاج الأجرة وهم يحتاجون عافيتها، ستقايضهم من أجل استمرار الحياة، ستعود صاغرة ولن تتدخل مرة أخرى فيما لا يعنيها.

عادت في اليوم التالي إلى الطريق الذي تعرفه جيدًا.

رجل الأمن لا يزال يعرفها فسمح لها بالدخول، عندما أصبحت في قلب المصنع لاحظت تغير أشياء كثيرة، رغم غيابها شهرين فقط، فلا وجود لنساء منكفئات فوق الكئوس وقطع الكريستال للفها بالقش، ولا يوجد مشرف يتابع تحميل القِطع الزجاجية فوق المقطورات، لم تر ثومة من مظاهر العمل القديم إلا ذكريات عالقة في رأسها على شكل صور، فالساحة التي كانت خاوية أقاموا فيها هناجر صاج زرقاء.

لم يهتم أحد بالحديث معها، شعرت بأنها أصبحت من أهل الكهف، خلال الدقائق الأولى التي قضتها في المصنع أخذتها حماسة كبيرة للعمل.

فُتح باب وخرج منه رجل لا تعرفه، سألها: «هل يمكن أن أقدم لكِ شيئًا؟».

فقالت:

«أريد مقابلة المشرف».

رد عليها وهو يتأمل البراويطة الجالس فيها آدم: «أنا المشرف، أي خدمة».

أخبرته بحكايتها، قالت له إنها كانت تعمل هنا منذ شهرين، وتركت الشغل بسبب الظروف، وتريد العودة، أنبأها الرجل بأدب أن جميع النساء أصبحن يعملن في الفرن، فقد بنى صاحب المصنع ثلاثة أفران لاستيعاب الإنتاج الجديد، ولم تعد هناك حاجة إلى اللف بالقش ورص القطع في الكراتين، فهذه العمليات البسيطة تتم الآن عن طريق مكن يعمل بالكهرباء، والرجال هم الذين يتولون أمر جميع المكن.

سرحتْ من كلام المشرف الذي لم تفهم مُعظمه، فسألها بشكل مباشر: «هل تريدين العمل في الفرن؟».

قالت:

«آة، أعمل».

قال لها:

«المصنع بالفعل يحتاج إلى عاملات للأفران، ويمكنكِ نزول الشغل ابتداءً من صباح الغد».

فقالت:

«ألا ينفع أن أبدأ من اليوم؟».

نظر المشرف إلى الساعة في معصمه:

«يوم العمل بدأ منذ ساعتين».

بعد أن غادرت البوابة بخطوتين تذكرت شيئًا، فتركت آدم بالبراويطة قُرب سور المصنع ودخلت جريًا، قالت للمشرف الذي لم يبتعد كثيرًا: «ممكن أقبض يوم مُقدَّم لغاية بكره».

فابتسم الرجل وقال:

«هنا لا يوجد دفع مقدمًا».

عندما همتْ بمغادرة المصنع نادى عليها: «يا ست، انتظري، لا يوجد دفع مقدمًا، ولكن يوجد سلف».

مد يده في جيبه وأخرج جنيهين.

«لغاية بكرة».

أخذتهما ثومة وهرولت باتجاه البوابة، أخرجت كيسها القماشي من عبها ووضعت فيه القرض الصغير، تذكرت كلام زوج أمها: «يزداد احتياج الإنسان للمال كلما تقدم به العمر». عندما خرجت من البوابة رأت آدم مُلقى بجوار سور المصنع يبكي من الألم، ولا وجود للبراويطة.

حملت ابنها فوق صدرها وعبرت به شارع المصنع، راقبتْ جميع الاتجاهات وهي تبحث عن سارق البراويطة، فلا شخص يمشي في هذا القيظ حتى تسأله، انعطفت إلى شارع طويل يقطعه كوبري، جلست تحته تجفف عرقها وعرقه بمنديل قماشي أخرجته من سيالتها وهي تفكر، كيف يمكنها استعادة العربة الحديدية ذات العجلة الواحدة؟ الأسفلت الجديد تفوح منه رائحة القطران بسبب الحر، تشعر ثومة بأن مسافة شبر واحد تفصلها عن مركز الشمس، رأت أبخرة حارَّة تخرج من خلف رجال يرصفون الشارع، يمسكون بالمعاول والمجاريف الكبيرة ويفرشون الزفت الساخن فوق الحصى، الجو كله يشبه الغلاية من شدة الصهد، وملامح العمال غير واضحة، لكن الرجل الذي يدفع براويطة محملة بالأسفلت كان واضحًا، عندما رأته يفرغ محتوياتها كادت أن تقول له «هاتها للولد يا عم بديلًا عما سُرقت مني».

عبرت الطريق الحار وتجاوزته بِعدَّة شوارع، فرأت عمال بناء يشيِّدون عمارة، يخلطون أطنان أسمنت بجبال رمل وزلط، يتجول أكثر من عشرة عمال حول

المبنى الناشئ، كل واحد يدفع أمامه براويطة تحمل مئونة البناء، وعشرات العمال يصعدون السقالات بقروانات حديدية فوق أكتافهم.

اقتربتْ من رجل جالس يمسك بخرطوم شيشة في يد، وفي اليد الأخرى يُشرِع شمسية فوق رأسه، وجهت سؤالها إليه: «ضاعت مني براويطة كنت أحمل فيها هذا الولد يا عم، ألم يجدها أحد رجالك؟».

تأملها الرجل من تحت مظلته المفرودة، كانت له عين زجاجية ثابتة وأخرى نصف مغلقة، رد عليها بعجرفة: «لو تريدين عملًا فاسحبي قصعة وقفي في الطابور أمام الرجل الذي يمسك بالكوريك المربوط في الحبل، أما لو أردتِ شيئًا غير ذلك فاعتبريني غير موجود».

أخذ يفرك شاربيه بالشمع، ثم أنزل شمسيته أكثر حتى لا توجه إليه أسئلة أخرى.

«أنتِ حمارة يا ثومة، لماذا هربتِ ولم تواجهي هذا الثور الذي جاء يبتزك في خُص الحاج سلمان؟ كان زمانك تطهين الطعام للسائقين في أمان، وربما اشتريتِ بيتًا وقطعة أرض». تناجي نفسها بعد أن ابتعدت عن المقاول صاحب العين الزجاجية.

«لا، كنتِ لن تقوي على المقاومة، كان هذا الثور سيهزمكِ لا محالة، فهو يفخر بأن كرشه لا تنمو إلا بأكل الحرام، وأراد قتل الحاج سلمان وزوجته السمينة الطيبة، لا لا، كان يكذب عليكِ يا ثومة، فالرجال يتكلمون عن القتل كثيرًا لكنهم لا يستطيعون ذبح دجاجة، لقد تخليتِ عن الحاج سلمان بسبب تهديد فقط، أنتِ جبانة».

انفعلتْ ملامحها كأنها تناجي شخصًا واقفًا أمامها، لكنها رغم كل شيء أكملت المسير، فقد فات الأوان على مثل هذا العتاب.

كل بضع خطوات تُعيد آدم إلى صدرها، كان ينزلق حتى بطنها كلما تقدمت به، كادت قدماه النحيفتان تلامسان الأرض، هل يمكن أن أعود فأسير في ركب زوج أمي وأختيَّ وكأن شيئًا لم يكن؟ قالت ثومة لنفسها وهي تهمّ بترك موقع البناء، احتفظت عينها بمنظر البراويط التي تملأ المكان بالضجيج والحركة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٧

استغرق بحثها عن سارق البراويطة حتى قرب العصر، خفَّ لهيب الشمس وبدأت الشوارع تعج بالأطفال والصِّبْية، ضربت يدها في عِبِّها وقالت موجهة كلامها لآدم: «زمانك جُعت».

أرختْ فم كيس نقودها واشترت لابنها طعامًا وبعض العصائر، أجلسته بجوارها بعيدًا عن الرصيف وبدأت تطعمه، تُبلِّع كل قضمة في فمه برشفة عصير، تسرب إلى سمعها صوت القرآن عبر مُكبر صوت، التفتت خلفها، أسماء الله الحسنى تلف الجدار، فعرفتْ أنها تسند ظهرها إلى سور مسجد، لمحت قُرب بابه شابًّا يرتدي الأبيض من رأسه حتى أخمصيه، يسير ببطء مطمئن ويفوح منه العطر، حملت آدم ولوحت للشاب قبل أن يعبر باب المسجد الكبير ويدخل: «سرقوني يا شيخ، سرقوا براويطة ابني الوحيد، كنت أحمله فيها إلى أي مكان، ليس بمقدرتي شراء واحدة غيرها، ولا أعرف ماذا أفعل».

نزل الشاب خطوة عن الدرج ليصبح في مستواها وقال: «وهل تعرفين الشخص الذي سرقك؟».

قالت:

«لا».

فرفع سبابته إلى أعلى:

«إذًا لا سبيل سوى الدعاء، وكما تعلمين، في الآخرة سينال كل مذنب العقاب الذي يستحقه».

بعد أن ألقى عِظته همَّ بالانصراف، كأنه بكلماته قدم الشفاء لكل آلامها، فسألته: «سأعود بابني غدًا إلى المصنع، وأريد وسيلة أحمله بها إلى هناك، أريد حلًّا الآن يا شيخ».

صعد الشاب الدرجة التي نزلها، استعد لخلع نعليه أمام المسجد، قال لها بعد أن أصبح بالداخل: «سأدعو لكِ بأن يبدلكِ الله خيرًا منها».

بعد العصر بساعة تسربت نسمة لطيفة طيَّرت شعيرات آدم الهائشة، ورأت ثومة بعض الصبْية يلعبون الكرة بجوار سور طويل، شاهدتهم من بعيد وتابعت أقدامهم التي تثير الغبار، ركنت ظهرها إلى السور فراحت في النوم وآدم متكوم في حجرها، ما إن غفت حتى رأته يجري ويلعب معهم بقدمين قويتين تراوغان بالكرة، عندما أفاقت كان الماتش قد انتهى والغبار هدأ والعيال انصرفوا بكُرتهم، فتأملت الأشجار التي يضربها الهواء، شعرت برعشة خفيفة وأنبوب عرق ينزلق فوق عمودِها الفقري.

في شارع جانبي لمحتْ رجلًا يجلس فوق حجر، يتحلّق حوله أشخاص في دائرة لا تهدأ عن الحركة، اقتربتْ بابنها ومدتْ رقبتها تستكشف الأمر، سألت رجلًا من الواقفين، كان مشدود الصدر مأخوذ البال: «ما هذا يا عم؟».

فقال الرجل دون أن ينظر إليها:

«رهان. الجنيه بعشرة».

تحسست ثومة الجنيه في يدها أولًا ثم سألته مرة أخرى: «وهل يمكن أن يكسب أي أحد؟».

رد الرجل ورأسه لا يزال داخل الدائرة:

«كل شيء جائز يا ست».

رأتْ صبيًّا صاحب حنجرة جهورية يروِّج للمشاركة، عندما اقتربتْ لمحت شيخًا لا تنبت في رأسه شعرة يفرش أوراق كوتشينة فوق حجر، ورأتْ أمامها رجلًا يدخل الدائرة بجنيه ويخرج بعشرة، فقررتْ أن تشارك بالجنيه اليتيم العرقان في صدرها، كانت يد الرجل تشبه المروحة، تلف بالأوراق حول بعضها كأذرع أخطبوط، بعد دقيقتين من الانتظار خرجت من الدائرة خالية الوفاض ليس معها أي نقود، لمجرد أنها اختارت رقم ثلاثة، هي ونفيسة ومهجة، لكن الرجل عندما فَرَدَ كفه بالأوراق لم يظهر فيها إلا رقم سبعة، ودَّت لو يعود بها الزمن خمس دقائق لتحتفظ بالجنيه للأبد، لكن الزمن تقدم خمس دقائق أخرى أثناء سرحانها.

ابتعدت عن المنطقة كلها، ساقتها قدماها حتى ميدان المسلة، غابت الشمس تمامًا، وبدأت المصابيح تتوهج أمام المحلات، لمحت سرادقًا مُقامًا في ساحة واسعة، تنبعث منه أصوات عبْر ميكروفونات معلقة فوق عروق خشب طويلة، السرادق محاط برايات بيضاء مكتوب عليها كلام وملزوق فوقها صور، وصبيان مثل خلية نحل يرصون الكراسي الخيزران، عندما جلستْ كان النعاس قد بدأ يغلق جفون آدم، أراحته في حجرها وانتظرت تقديم العروض، لكن لم يصعد ساحر ولا ضارب طبل إلى خشبة المسرح.

بعد قليل رأت خمسة رجال يجلسون أمام الجمهور، وضعوا أمام كل منهم ميكروفونًا فوق المسرح، وبدأ الكلام بتداخل أصوات خشنة مع هيصة الحضور، العرض الذي تنتظره ثومة لم يبدأ بعد، فسألت إحدى الجالسات بجوارها: «متى سيخرج حامل الصاجات ويقول: ما سترونه الآن هو جزء صغير من الحياة القاسية، لكنه يُعبر عن الحياة كلها، والآن أيها السادة سيقدم لكم ساحرنا العظيم فقراته الرائعة؟».

التفتت إليها المرأة وتأملتها بغرابة ثم قالت: «هل ترين ذلك الرجل السمين الذي يجلس في المنتصف تمامًا؟ نحن هُنا جميعًا لنضع اسمه في الصندوق، من أجل أن يقدم لنا الخدمات».

عدلت ثومة وضعية آدم في حجرها أولًا:

«وهل يمكن أن يقدم هذا الرجل أي خدمات مهما كانت صعبة؟».

فمالت المرأة على أذنها وقالت بنبرة العارف:

«هذا الرجل يمكنه أن يسلك المجاري كل يوم، ويُحوِّل أرضكِ الزراعية إلى مبانٍ بجرة قلم، كما يمكنه أن يوظف ابنك في وزارة الأوقاف حتى ولو كان اسمه ميخائيل».

نظرت ثومة في وجه ابنها النائم، ثم سألتها بمستوى صوت أقل: «وهل يستطيع أن يعيد شيئًا مسروقًا؟».

قالت المرأة:

«وما الذي سُرق منكِ؟».

فردت عليها وهي تتأمل ملامح آدم:

«البراويطة التي كنت أحمل فيها هذا الولد».

فقالت المرأة بثقة مفرطة:

«هذا الرجل يستطيع أن يعيد إليكِ أي شيء سُرق منكِ، حتى ولو تكحَّل به الحرامي».

بدأت الميكروفونات تنقل صوت الرجال الخمسة الجالسين فوق المسرح، هدأت هيصة الناس المنتظرين في الساحة الكبيرة، عندما بدا كل شيء في مكانه بالضبط قامت ثومة واتجهت إلى المسرح، قصدت الرجل السمين الذي يمكنه فعل أي شيء، كان يعلق فوق صدره وشاحًا من حرير على شكل علم مصر، قالت له ثومة تحت طن من الأضواء: «هل يمكنك أن تعيد إليَّ براويطة حديد سُرقت مني صباح اليوم يا عم؟».

قام الرجل ولوح بيديه فصفق الجالسون، طلب منها أن تنظر إلى الجمهور الكبير أولًا ثم قال: «أنا ما جئت هنا إلا لخدمتكم».

ضج السرادق بالتصفيق، فأمسك بذراع ثومة ورفعها عاليًا، طلب من أحد الواقفين حوله أن يُحضِر لها كرسيًّا، مال فم الرجل البدين على أذن شخص

يقف خلفه وقال له شيئًا، ثم نظر إلى الجمهور وهو يستدعي أعرض ابتسامة ممكنة ويقول: «دائمًا الوعود سهلة، لكن المهم هو الوفاء بها».

حشر الرجل السمين كرسيًّا سادسًا بجواره ودعاها للجلوس، ظلت تستمع إلى كلامهم وهي تحاول أن تتجنب الإضاءة الثقيلة للكشافات، رفعت كفها فوق عينها لتتمكن من الرؤية، قبل أن ينهي الرجل خطبته صعد شخص فوق المنصة وهو يسحب براويطة جديدة زرقاء تفوح منها رائحة البوية، مد يده بها إلى ثومة، فوضعت فيها آدم وطلبت المساعدة للنزول، وقبل أن تتفوه بكلمة رأت فلاشات الكاميرات تضرب عينها من اتجاهات مختلفة، التقطت لها أكثر من صورة، لم تستطع فتح عينيها أمام كل هذا الكمّ من البياض.

وجهتْ كلامها إلى الرجل وهي تتحسس الدرج الخشبي للمسرح: «هل يمكنني أن أمشي؟».

فقال:

«طبعًا، لكن برجاء أن تتحدثي مع الناس عما أفعله من أجلهم».

كانت تعرف رغم كل شيء أن سخاء الرجل معها له ما يبرره، فرفعت رأسها لأعلى وقالت: «أنا لا أعرف أحدًا غير عم سعد، لكن لا تقلق، فربنا كبير يا عم».

اخترقت الصفوف وهي تدفع البراويطة بابنها النائم، مرت على المرأة التي كانت تجلس بجوارها، قالت لها: «شكرًا يا ست».

ملصقات تحمل صورة الرجل ملزوقة فوق كل شيء: السرادق وواجهات المحلات وعربات الكارو، الرجل السمين يرفع يمناه ويبتسم، رأتْ شخصًا يسير بجوار درَّاجته، يرن الجرس مثل ساعي البريد دون داعٍ، يفتح حقيبة راقدة فوق الحمَّالة الحديدية، يمد يده بأوراق تحمل صورة الشخص نفسه الذي كانت تجلس بجواره، تقول له.

«ماذا أعمل بها يا عم؟».

«وزعيها على أقاربك، لا نريد أن يفوز المنافس يا ست».

وتتأمل ثومة الرجل دون أن تمد يدها، ثم تأخذ منه بعض الصور، تنظر إليها وهي تفكر: «لِمَ المنافسة أصلًا من أجل حياة لا تستحق شيئًا؟».

طوت أوراق الانتخابات ووضعتها خلف ظهر آدم في البراويطة الجديدة، خرجت من السرادق وهي تفكر في مقولة الشيخ الشاب الذي صادفته عند باب المسجد: «سأدعو لكِ أن يبدلكِ الله خيرًا منها». تضاعفت همتها وهي

تدفع العربة الحديدية من ميدان المسلة إلى بيتها في عرب الحصن، عندما وصلت كانت المنطقة كلها نائمة، ولا صوت غير صفير الريح ونباح الكلاب.

في الصباح رأت سعد منشغلًا في تعلية مقعد الكرسي بقطعة إسفنج، سمعته وهي خارجة: «تعفنت مؤخرتي من الجلوس فوق هذا المدعوق».

علَّقتْ صورتين للمرشح فوق مدخل البيت، سألها سعد: «ومن يكون هذا الرجل السمين؟».

قالت:

«لا أعرف اسمه، أعطوني صوره وقالوا وزعيها على الناس».

ضيَّق عينيه ليرى الاسم والملامح في الورقة:

«ها، هذا عضو مُرشح عن الدائرة».

«وماذا سيفعل هذا الرجل لنا؟».

تجاهل الصورة وأخذ يشد شعرات طالعة من أنفه:

«لن يفعل شيئًا، لقد كبرتُ يا ثومة على انتظار المُخلِّص، لن يستطيع أحد فعل أي شيء، وإن فعل، سيفعل لنفسه».

توقفتْ ثومة عن تعليق باقي الصور:

«في الخيمة، لم أفهم من كلامهم شيئًا، وهُنا، لم أفهم أيضًا ما تقول».

ابتسم سعد وهز رأسه:

«أحسن، أنتِ أفضل هكذا دون فهم».

تركته ودخلتْ غرفتها، نامت ملء جفونها وهي تحلم بأنها تقبض المرتب أول كل شهر من يد المشرف حامل الدفتر.

ما إن تَنَفَّس الصبح، وقبل أن تلون الشمس الشارع بصفرتها الصيفية خرجتْ، أرادت أن تذهب إلى المصنع مبكرًا في يوم عودتها الأول للعمل، مدت آدم بالبراويطة الجديدة تجاه جارها العجوز: «سأتركه معك اليوم فقط يا عم سعد، لو لم أذهب إلى المصنع مبكرًا فسيطردوني مرة أخرى، وإذا وصلتُ متأخرة، أنت تعرف، لن يفتحوا لي البوابة، وأنا لا أجيد التأسف أو تزويق الكلام».

يدفع سعد الكرسي تجاه ثومه ويتأملها:

«أنتِ لا تعرفين الكلام نفسه».

لم تنتظر أن يُكمل شرحه، خرجت وهي تبتسم في وجهه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٨

قرب العصر، وبينما كان العيال يعفِّرون الشارع بلعب الكرة، وقفت سيارة نصف نقل ونزل منها رجلان، نظر أحدهما في أوراق يحملها وهو يتأمل أرقام البيوت، دخل صبي ينادي على سعد، خرج إليهما بكرسيه الذي تعلقت عجلتاه في عتبة البيت، فساعده فريق الكرة على الخروج، وسأله أحد الرجلين: «هل تسكن أم كلثوم العزب سعيد هنا؟».

فأجاب العيال في الشارع قبل أن يفتح سعد فمه: «نعم. أم آدم».

نكَّس الرجل الآخر رأسه وقال: «نأسف لقول ذلك، فقد انزلقت قدم أم كلثوم في الفرن».

شهق الصبْية وضرب سعد جناحي كرسيه بقبضتيه: «آه، فقدتْ قدمها مثلي، أو ذراعها، أليس كذلك؟».

فقال الرجل الأول:

«لقد فُقدت كليًّا، وللأسف لم يُعثر لها على أثر».

التفت سعد إلى مدخل البيت، كأنه تذكر آدم بشكل مفاجئ، اصطدمتْ عينه بصور المرشح الانتخابي المعلقة في المدخل، عندما لم يجد ردًّا قال له حامل الأوراق: «هل لديها أهل هنا؟».

فقال سعد:

«لا أعرف. لا أعرف».

سحقت الإطارات حصى الشارع، خلَّفتْ سيارة المصنع حولها دوامة من الغبار، فتوقف الصبْية عن اللعب بالكرة، غير أنها سرعان ما عادت بعد وقت وجيز، ونزل منها الرجلان مرة أخرى: «لم يدلنا أحد بطول الشارع على أيّ من أقاربها، أين أهلها؟».

اصطحبهما سعد للداخل وأشار إلى آدم.

«هذا هو كل أهلها».

دخل خلفهم فريق كرة القدم يراقبون ماذا سيحدث، نظر الرجلان إلى الجسد الهزيل المستكين في البراويطة وقال أحدهما موجهًا كلامه لسعد: «هل يمكن أن نتكلم معه؟ هو على أي حال ليس طفلًا رضيعًا».

فقال سعد:

«آدم لا يعرف شيئًا، هو أضعف من طفل رضيع، ولا يمكنه أن يستوعب ما حدث لأمه».

وقف الرجلان أمام عتبة البيت، يريدان إنجاز المهمة حتى يمكنهما العودة إلى المصنع بالأوراق مُوقَّعة وسليمة، فنظر أحدهما إلى سعد وقال: «وأنت، من تكون بالنسبة لآدم؟».

فقال سعد:

«أرعاه».

ورد الرجل:

«في مقام جده مثلًا؟».

ويرد:

«يعني».

صمت الرجل قليلًا ثم نظر لزميله الآخر ووجه كلامه لسعد: «ألا يمكنك توقيع هذه الأوراق على أنك أقرب شخص للحالة؟».

رفع سعد رأسه تجاه الرجل.

«أي أوراق؟».

أخذ مندوب المصنع يفر ملفًّا في يده: «ستقر بأنك قريبها الوحيد، وأن المصنع غير مسئول عن الوفاة، كما ستوقع على شيك بمبلغ مكافأة نهاية الخدمة يُصرف لحامله، هل لديك بطاقة تحقيق شخصية؟».

قال سعد دون تفكير:

«البطاقة معي، وسأوقع على الأوراق».

أشعل الرجل سيجارة وقال: وهو يدق فوق كعب دفتره: «هل تعرف ما هي أكبر مشكلة تواجهنا في المصنع؟ توظيف عمال لا يجيدون القراءة والكتابة، الجهل يُصعِّب مهمتنا، لأن لا أحد يلتزم بقواعد الأمان، وبسبب ذلك تحدث كل المصائب».

فهز سعد رأسه وأكمل الرجل: «عليك إذن أن تأتي غدًا إلى المصنع لتستلم الشيك وتستلم رفاتها؟».

كان وقع الكلمة سيئًا «رفات». هز سعد رأسه بالرفض والإيجاب معًا، فقال المندوب: «غدًا في المصنع ستعرف كل التفاصيل».

هش سعد الصبْية الذين يخبطون الكرة في الأرض عند مدخل البيت وسأله المندوب: «ستحضر غدًا إلى المصنع، أليس كذلك؟».

فقال سعد بحماسة بالغة:

«طبعًا سأحضر».

«في التاسعة صباحًا».

«في التاسعة صباحًا».

بعد الاتفاق انصرف المندوبان بسيارتهما.

ظل سعد ينظر لفترة طويلة إلى المكان الذي كانت تقف فيه السيارة، دفعهُ الصبية بالكرسي إلى الداخل، فلم يستطع أن يلف عجلتيه بيديه المرتعشتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٩

لم ينم سعد في تلك الليلة، تأمل آدم طويلًا بعد أن نقله معه إلى غرفته، وضع ورقة بيضاء في فم الآلة الكاتبة، ثم أخذ ينقر أحرفًا وكلمات ليس لها معنى.

في الصباح أغلق غرفته على آدم بالمفتاح، ثم استأجر تاكسيًا وطلب من السائق، كالعادة، طي كرسيه ووضعه في الشنطة، وقف طويلًا أمام بوابة مصنع الزجاج فانتبه إليه رجل الأمن، انتظر قليلًا حتى تكلم في اللاسلكي فحضر أمامه الرجل الذي زاره بالأمس، خرج إليه المندوب بالأوراق جاهزة، فوقَّع سعد عليها واستلم الشيك، سرح عندما سأله الرجل هل سيدفن ما تبقى من العاملة بمعرفته، فكر مدة طويلة فأعاد الرجل عليه السؤال: «هل ستستلمها أم ندفنها بمعرفة المصنع؟».

هز سعد رأسه بالنفي.

«بمعرفة المصنع، هذا سيكون أفضل».

عاد إلى التاكسي الذي كان ينتظره بالخارج، يحمل في يده مظروفًا صغيرًا ويحمل في رأسه أفكارًا كثيرة، قال للسائق دون قصد بالكلام: «لديهم أمانة كان من المفترض أن أتسلمها، لكني لم أستلم شيئًا».

فأجابه الرجل وهو يتابع الطريق:

«لا تصدق أصحاب المصانع، فلو كان لديهم شيئًا لأعطوه لك».

بعد تفكير خاطف طلب سعد من السائق العودة إلى المصنع مرة أخرى.

خرج من مصنع الزجاج في المرة الثانية وهو يحمل بين يديه شيئًا، فلا يمكن أن تكون هذه الأنبوبة الزجاجية الكبيرة جارته، كتلة من زجاج شكلتها الحرارة بمنتهى الحرية، فجعلتها مجرد شيء ليس إلا، قال له المُشرف إنهم أوقفوا الفرن مباشرة بعد الحادثة، وأخرجوا «العجنة» كلها، فقد أصبح فيها روح.

عندما عاد سعد استوقفه فريق كرة القدم وأشار أحد الصبْية إلى رجل في الشارع: «هذا الشيخ كان يسأل عن أم آدم».

صفَّر له الولد فعاد، وقال سعد:

«أي خدمة».

كان شابًّا ملتحيًا، قال بأدب وابتسامة لم تفارق ملامحه: «أنا مندوب من المسجد، وجئتُ لدراسة حالة السيدة أم كلثوم العزب سعيد».

فرد سعد:

«ألم يقل لك الأولاد في الشارع أين ذهبتْ؟ لقد غيرتْ عنوانها».

سأله الشاب:

«مؤكد؟».

وقال سعد:

«نعم مؤكد».

لم يقل للشاب الملتحي إن الأنبوبة الزجاجية التي يسندها على ركبتيه هي ما يسأل عنه.

ساعده فريق كرة القدم في دخول الأنبوب وهم لا يعرفون شيئًا، عندما فتح باب غرفته كان آدم نائمًا، فوضع الشيء أولًا بجوار الآلة الكاتبة وحجر النيزك، ثم وضع مظروف المكافأة الأبيض في حشية المرتبة، اعتلى السرير وفرد جسده فوق الشيك ليمنعه من التبخر.

أثناء الليل ظل يتأمل الشيء ويتخيل عروق الحياة تدب في هذا الجسد الزجاجي الميت، بداخل الجسم الشفاف رأى عروقًا تشبه الشوائب، هل هذه هي ثومة جارتي بالفعل؟ سأل سعد نفسه قبل أن يتملك منه نعاس ثقيل، رأى نفسه خارجًا بالكرسي شبه طائر، يمر من باب إلى باب، كان في ذلك الحلم يتسول، والأيادي تمنحه العطايا بشكل مُهين، تلقي بها على الأرض فينحني ويلتقطها، عاد من منامه إلى غرفته غاضبًا ينظر لأعلى، حيث صورته، البرواز الذي يتربع فيه دون أن يمسه زمن، قبل أن يعرف الدنيا على حقيقتها، قبل أن تسيح قدمه في مضرب الطوب وتمنعه من الزواج والخلفة، يوم بعيد لكنه أبدًا لن ينساه، قفز مساعده الأبكم عندما رأى سعد ينزلق إلى فوهة الفرن، جذبه من ملابسه بعد أن راحت قدمه، فوقف الأبكم إلى جواره يصيح بلا صوت، فقط همهمات تشبه الفحيح، لكن الوقت قد فات على أي استغاثة، لو كان يملك صوتًا لأمكنه إنقاذ قدمه قبل أن تذوب مثل السمن في الطاسة.

عندما علمت عائلته في قريته البعيدة بمحنته اجتمعوا مرة واحدة لبحث الأمر، ثم قرروا أنهم سيجمعون من بعضهم «شهرية» ويرسلونها في خطاب مرفقة ببعض الأشواق والأمنيات بالشفاء العاجل، بعد عدة أشهر أصبحوا يرسلون كل شهر أشواقًا فقط، ثم لم يعد أحد يراسله نهائيا أو يطلب له الشفاء، انقطعت أخبارهم من المحافظة البعيدة في أقاصي الصعيد، أصبح يدخر النقود للطعام فقط، فلا تكفي أيضًا، فقرر شراء آلة كاتبة ينسخ عليها الأبحاث للطلبة، ظلت بحوزته حتى انقرض طرازها ولم يعد يجد لها قطع غيار، فحرف الهاء عندما فُقِدَ من ذراع النقر لم يستطع تعويضه، في البداية، كان إيقاع يديه أسرع من إيقاع دماغه، لكن مع تقدمه في العمر حدث له

العكس، وبسبب احتياجه الدائم للقرش تحول إلى شخص فظ، استغرق سنين حتى ارتضى مهنة لا تحتاج إلا إلى أصابع فقط، أدار ظهره للحياة كما فعلتْ معه، واستغرق سنين أخرى حتى تعلَّم أن الحياة ليس لها ظهر، وإنما لها زمن، عندما يمر لا يعود.

في تلك الليلة، وأثناء سرحانه، وقعتْ عليه السماء بكل ثقلها، عندما انتبه من غفوته وجد السقف على حاله، لكن رجلين خرجا من جوفه تحيطهما غلالة من الغبار والقش، وقبل أن يكتمل انتباهه أحس بحبل غليظ يلتف حول عنقه، وسمع صوتًا: «هذه المرَّة تهديد فقط، لكن في المرة القادمة سأشنقك يا جدو».

وقع سعد من السرير إلى الكرسي الذي مال على جنبه، لم يستطع القيام أو الحركة، لكنه أحس بيد تنزع المشنقة عن رقبته، جر الحبل في طريقه زعبوطه القطن فوقع وانغمس في التراب، ضرب عينه فلمح ظلًّا يستطيل على الأرض ويقترب، سرق الخوف صوته، انغرست يد في كتفه كالخطاف، ورأى خلفه خيطًا من الدم.

«أنت تعرف ما نريد وتماطل».

تحدث سعد إليهما وهو في أضعف حالة يمكن أن يصل إليها إنسان، صدغه ملتصق بالأرض وفمه يسفّ التراب ولا توجد لديه قدم يسند عليها ليفكر في المقاومة.

«هل يصح هذا يا بني؟ رجل مثل أبيك وتفعل به ذلك!».

كان الشابان فتيين، أحدهما نحيف وطويل بوجه مستطيل، والآخر ضئيل الجسم لكن صوته عميق، قال الطويل: «كلماتك الوعظية لن تفيد، سأعيد عليك ما نريد، نظف أذنيك جيدًا. الحجرتان، حجرتك وحجرة أم المسخ هذا، لم يعد إيجارهما يكفي للف سيجارة واحدة، نحن مجرد مرسال من أصحاب البيت، فهم ناس شرفاء، أما نحن فأولاد كلاب، يمكننا أن نقتل مثلما نتثاءب، سأقولها لك بصراحة: القتل عندنا ليس جريمة، بل عمل نؤديه، هل فهمت؟».

حاول سعد القيام مجددًا، فرفضتْ ساقه السليمة القيام بالمهمة وحدها، لم ينفعه حجر النيزك الملقى بجوار رأسه كرأس آخر صغير.

التقط ضئيل الجسم خيط الكلام:

«سندبر لك غرفة أخرى في شارع جانبي».

«طيب، أقوم أولا حتى أستطيع الكلام».

جذب الشاب الطويل الكرسي وجعله في وضعه الطبيعي، نظف سعد صدغه من التراب، وأعاد الزعبوط إلى رأسه، لكن الشاب ضئيل الجسم شال الزعبوط ورماه على الأرض مرة أخرى، لم يستطع سعد إخفاء زعره.

«سنمهلك أسبوعًا آخر، لكنه أسبوع واحد فقط يا جدو».

قال أحدهما ثم اختفى الاثنان.

مرت حياة سعد كلها في لمحة، بكى وقال في نفسه: «أنا لا أصلح أبدًا لدور الشرير».

عندما اعتدل في جلسته كان وجهه مصفرًّا ومصفوعًا بالمهانة، لم يعرف هل خرج الهجَّامان من الباب أم طارا من السقف مثلما هبطا؟ أمسك بسكين وشق حشية المرتبة، فتح المظروف وأخرج الشيك ليعرف كم هي قيمته المالية، تغيرت قسماته عندما رآه مُوقعًا بمبلغ مائتي جنيه، جعله المبلغ الكبير يخبط فوق صدره ويحدث نفسه كالمخابيل، لا تأتي الفُرص كثيرًا، وفي مثل عمري ربما لا تأتي إلا مرة واحدة، أمسك بقلم كان بجوار الآلة الكاتبة، رسم فوق رزمة الأوراق البيضاء خريطة مبهمة وكتب كلامًا كالطلاسم.

لقَّم فم الآلة بورقة، ثم وضع شريطًا أحمر وكتب هذه الجملة: «إذا لم تستطع أن تكون قويًّا، فعلى الأقل كن ذكيًّا». تأملها طويلًا وظل يتحسس الأحرف المحفورة بأطراف أصابعه.

بعد يومين زار البيت قِس، وسأل عن ثومة، قال الكلام نفسه الذي قاله الشيخ، فلم يرد سعد عليه بكلمات جديدة: «لقد غيرت سكنها».

في الأيام التالية رفض آدم كل أنواع الطعام، حتى العصائر كان يصدها بكفه النحيلة، اشترى له سعد قطارة وملأها بالحليب الدافئ، فرفضها آدم أيضًا، انكمش ووقع معظم شعر رأسه، فبرزت أذناه وبانت عظام جمجمته، ولأن أحدًا لم يساعده منذ أيام في الاغتسال من فضلاته، فقد أصبحت رائحة الغرفة أقرب إلى حظيرة، وبقايا الطعام والملابس ملقاة في كل مكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٠

غادر سعد غرفته مرتين خلال أسبوع واحد، وهذا ما لم يحدث طيلة الأربعين سنة الفائتة، أغلق الباب بالمفتاح وغاب نصف نهار، رآه بعض السكان وهو يستوقف تاكسيًا ويطلب من سائقه طي كرسيه المتحرك ووضعه في شنطة السيارة، لكنه عندما رجع آخر النهار لم يُخرج له أحد الكرسي المتحرك، بل أخرجه هو بنفسه، لم يطلب من الصبْية الذين يلعبون الكرة أن يرفعوا العجلتين ليمكنه تخطي عتبة البيت، فقد عاد ماشيًا على قدميه، لم يلحظ أحد العرج البسيط وهو ينقل قدمه اليمنى بمساعدة خفيفة من يده، زفَّهُ فريق كرة القدم في الشارع حتى عتبة بيته، حياهم بابتسامة ولوح لهم بذراعيه قبل أن يدخل.

وقف أمام البراويطة وقال:

«أعتذر منك يا آدم، أعرف أنني تركتك لفترة طويلة بلا طعام».

كان آدم ينظر إليه فقط، جلد رأسه الكبير ملتصق بعظام الجمجمة، شعره الهائش يتخطى قفاه، وجسده الهزيل ازداد هزالًا.

«ولكني أحضرت لك مفاجأة».

قال ثم رفع آدم وألقى به فوق كرسيه المتحرك: «منذ الآن سيصبح هذا الكرسي لك، فأنا لم أعد في حاجة إليه بعد اليوم».

فتح كيسًا كان في يده، أخرج منه بعض الأطعمة الجاهزة، مد يده أمام فم آدم فلم يأكل منه شيئًا، لكنه جذب رأسه بعيدًا عن رائحة الطعام، فجلس سعد في البراويطة والتهم كل الساندويتشات التي اشتراها، بعد أن ملأ بطنه أشعل سيجارة، بين كل نفس وآخر يتحسس قدمه الجديدة ويطمئن لوجودها، ينظر إلى كتلة الزجاج الثابتة بجوار الآلة الكاتبة.

لم يعد سعد مهتمًّا بالكلام الدائر عن رصف الشارع، ولا حديث السكان عن أن الحكومة ستمد خطًّا للسكة الحديد، أو إقامة مدينة صناعية كبرى على أنقاض البيوت العشوائية ومزارع البرتقال القديمة.

تأمل طويلًا ساقه الناعمة الجديدة التي تنتهي بفردة حذاء، أول حذاء خروج يشتريه كاملًا منذ نصف قرن.

بعد أن سحب النفس الأخير من سيجارته تذكر ما يمكن أن يفعله من أجل آدم، فقد قالت له ثومة إن عمها طبيب مشهور ويسكن في المعادي، وإنها تضع كل الأوراق بالعنوان وأرقام التليفونات في جراب تحت فرشة القش، جذب سعد العربة الخشبية المهملة وأخرج منها ملفًّا كانت جارته تحتفظ به،

تفحصَّه جيدًا، لمح كارتًا مدبسًا به كل البيانات: العنوان وأرقام التليفونات في الكارت القديم الذي أخذته ثومة من أبيها وهو يحتضر. كلما طلب النمرة من تليفون البقال لا يجد حرارة، فتأمل العنوان أكثر من مرة حتى حفظه في رأسه، محطة قطار المعادي، شارع ٩ فيلا الدكتور معوض سعيد علي.

سحب آدم بالكرسي وخرج من غُرفته، استقل تاكسيًا وطلب من السائق توصيلهما إلى المعادي، قاصدًا فيلا الدكتور معوض، عندما وقف أمام البوابة لم يكن يدري ماذا سيقول عن سبب الزيارة، ماذا سيطلب بالتحديد! رأى حارس القيلا شيخًا مسنًّا يعرج ويدفع أمامه كرسيًّا متحركًا يهتز فوقه رأس، فاقترب منه.

«أي خدمة؟».

أجابه سعد وهو يلهث:

«أريد مقابلة الدكتور».

وزنه الحارس بنظرة متفحصة، أخرج جهازًا لاسلكيًّا من جيبه وقال كلامًا بصوت خفيض، تجنب سعد كلب حراسة كبيرًا في حجم جحش، وقبل أن يتمكن من الدخول خرج إليه رجل مُسن يرتدي روبًا حريريًّا، تناول منه الكارت ثم أعاده إليه بسرعة وقال: «لا يوجد أحد هنا بهذا الاسم».

مدَّ سعد ذراعه للرجل وقال متوسلًا:

«بُص في الكارت مرة ثانية يا سعادة البيه».

فأشاح الرجل بالكارت دون أن يراجع بياناته مرة أخرى: «قلت لك العنوان غلط».

أُغلقت البوابة ودخل الحارس والرجل صاحب الروب الحريري، توقف الحارس عند كشك في قلب الجنينة، وابتعد الرجل المُسن تدريجيًّا حتى اختفى.

نظر سعد إلى آدم، تأمله جيدًا كأنه يراه لأول مرة، كانت بشرته منطفئة، تطوق عنقه النحيف حلقات من جلد بارز كقشر السمك، عندما انفرجت شفتا الطفل المتشققتان لاحظ سعد نزيفًا في اللثة، فتكشَّفت البشرة التحتية الوردية للون الجلد، كما لاحظ قروحًا في فروة رأسه وغيامة في عينه كمَن كبستْ عليه رغبة النوم.

«قلت لك العنوان غلط».

رنَّت الجملة مرة أخرى في أذن سعد، فابتسم بجانب واحد من فمه ودفع الكرسي بعيدًا.

تشبه شوارع المعادي بعضها، فما إن يخرج من شارع حتى يعود إليه من جديد، وكلما مر أمام كشك ورد ظهر أمامه كشك آخر يشبهه، دفع بالكرسي من ميدان إلى ميدان حتى وصل أخيرًا إلى محطة القطار.

استوقف الكرسي رجل نحيف يربط يده بضمادة متسخة، قال لسعد: «هل تبحث له عن عمل؟».

فنظر سعد لآدم الغاطس في الكرسي.

«عمل! لهذا؟».

وضع الرجل يديه الاثنتين فوق ظهر الكرسي كأنه يعاين بضاعة سيشتريها.

«إن الفلوس التي يمكن أن يجنيها هذا الولد تفوق الخيال، يمكنني أن أعطيك جنيهين في اليوم، من طلوع الشمس وحتى العشاء».

آلمت سعد قدمه الصناعية فاتكأ ومال ناحية اليمين بشكل ملحوظ، وفهم الرجل النحيف أن هذا المبلغ لا يُرضيه، فقال: «جنيهين ونصفًا، لكني لن أطعمه».

فتأمل سعد اليد المربوطة بالضمادة وقال:

«وماذا ستجني أنت؟».

ابتسم الرجل فبانت أسنانه المهشمة السوداء:

«سأجني أضعاف ما سأدفعه لك، فأصحاب القلوب الرحيمة يُخرجون الفلوس أسرع من أي شخص آخر».

عندما لم يرد عليه بالموافقة أو الرفض غاب الرجل النحيف في الزحام، فجلس سعد بجوار الكرسي، كان آدم ينتفض والرغاء يفيض عن فمه، قال لنفسه: «لو تخليت عن هذا الولد فسيموت، وطبيعي أن يموت من لا يريده أحد».

ثم عاد ليغير أقواله:

«لكن من المؤكد سيعثر عليه شخص أفضل مني».

أسند ذراعه فوق سنادة الكرسي وسرح:

«حتى لو مات، فالناس يموتون كل يوم، وقد خلق الله الموت رحمة للعالمين».

ركز نظره على قطعة اللحم الذابلة فوق الكرسي: «ربما كان يجب أن تموت يا آدم منذ البداية، قبل أن تولد، كنت لن تشعر بشيء على الإطلاق».

انزلق آدم فأصبح رأسه عند آخر ظهر الكرسي، وقدماه النحيفتان تلمسان الأرض، حاول سعد أن يعيده لسيرته الأولى، بعد جهد نجح في إعادته لوضعية الجلوس مرة أخرى، تأمله فوق الكرسي وهو يلهث.

«لا أعرف إن كان يجب عليك أن تزحف مثل سلحفاة، أو تطير مثل عصفور، أو تسبح مثل سمكة، كل ما أنا متأكد منه أنك لن تمشي أبدًا مثل إنسان».

الناس أمامهما يروحون ويجيئون، أقدامهم تضرب الأرض فيطير الغبار ويحجب الضوء، يد سعد تهتز دون رغبته وركبتاه ترتعشان، عاد يتحدث إلى نفسه مرة أخرى: «ربما لو تخليت عنه فسيعثر عليه شخص أصغر مني سنًّا، ويمكنه الاعتناء به بشكل أفضل».

أحس بقشعريرة تمتد على طول عموده الفقري.

كل بضع دقائق يهش الذباب الذي تجمع بين شفتي آدم، أثناء هشه لاحظ نعاس الولد، كان الذباب يزيد في العدد ويكبر في الحجم ويتغير في اللون، وقعت عين سعد على حجر صغير فوضعه أمام عجلة الكرسي ليُكبِّل حركته ويمنع انزلاقه، ترك الكرسي بالكائن الساكن عليه، ركز في عينَي آدم مليًّا: «لا تمت أمامي الآن».

قال سعد لنفسه، ثم غاص بين زحام الناس وغبار الأقدام دون أن يلتفت إلى الخلف.

فتح آدم عينه وظل يتأمل الألوان التي تتغير كل ثانية في ملابس الناس وشنطهم وأحذيتهم، غابت الشمس كليًّا وحلَّ المساء، فأضاءت المحطة فوانيسها التي يغلفها الغبش وتطوف حولها الهوام، كان رأسه فقط يتقلب ذات اليمين وذات الشمال، يفتح عينه أو يغلق فمه، لكن أحدًا من المارة لم يلحظ آدم الذي كان نائمًا، يلتصق رأسه بظهر الكرسي، والكرسي ملتصق بسور المحطة، يمدد جسده الهزيل ويتمطى، يضع يديه فوق فخذيه الصغيرتين، في زحام الغروب انزلق جسده وتكوم كليًّا فوق مقعد الكرسي، فأصبحت ملابسه بالكاد تُرى.

كان المارة يتخطونه وهم ينظرون إلى الساعات في معاصمهم.

أغمض آدم عينيه فغاب عنه كل شيء، لم يعد يريد أن يرى أحدًا، لأن لا أحد يريد أن يراه.

عندما توغل الليل تضاءلت أعداد الناس، وعندما اقترب الفجر لم يعد في الشارع إلا اللصوص والكلاب، فاقترب من الكرسي شابان يترنحان، حمل أحدهما آدم، أو بالأدق ما تبقى منه، وضعه بجوار الرصيف مكبًا مثل شيء، ثم حمل الشاب الآخر الكرسي فوق رأسه واختفى.

قبل الفجر بقليل عاد الرجل النحيف الذي يربط ذراعه بضمادة متسخة، لم يصدق أن آدم أصبح وحده، بلا حارس، فحمله فوق كتفه وغادر المحطة كأي أب يشيل ابنه.

عندما طلع الصبح وبانت معالم الأشياء، اختفى أي أثر للولد والكرسي المتحرك، عاد الناس إلى أشغالهم وذهب الطلبة إلى المدارس والجامعات، خلال نصف يوم فقط غاب آدم عن الأنظار دون أن يلحظ أي شخص، لم يُعر أحدٌ الموضوع تركيزًا أو اهتمامًا، عندما سمع الناس صوت الصافرة القوية، هجموا على أبواب العربات قبل أن يفوتهم القطار ويُقلع إلى المحطة التالية.

شكر موصول إلى

ـ عماد العادلي.

ـ أشرف العشماوي.

ـ إبراهيم عبد الرحمن.

ـ هدى أبو زيد.

على قراءتهم المُدققة لمسودة العمل، وإبداء ملاحظاتهم المهمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس..

عن الرواية..
إهداءٌ..
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩
١٠
١١
١٢
١٣
١٤
١٥
١٦
١٧
١٨
١٩
٢٠